

## الفصل الأول

### قراءة فى الإرهاب الدولى

- (١) بين القوة والإرهاب .
- (٢) مفهوم الإرهاب والمقاومة - رؤية عربية إسلامية .
- (٣) التواطؤ الأمريكى فى أحداث ١١ سبتمبر .
- (٤) قالوا عن الحرب وأهوالها .
- (٥) تدهور المؤسسات التعليمية والثقافية أثناء غزو العراق .

obeikandi.com

## (١) بين القوة والإرهاب

القراءة التي سوف أوجزها هي للأستاذ الجامعي والباحث السياسي نعوم تشومسكي في كتابه الذي صدر أوائل عام ٢٠٠٣ بعنوان القوة والإرهاب ، يغوص ليستجلى غور مصادرها وبواعثهما ، دون الاكتفاء بأعراضهما من أحداث ووقائع ، وهو يذكرني في تشخيصه المتعمق بمقولة الإمام على الخليفة الراشد ، مفادها أنه (لا ينبغي أن يُسأل الجُهلاء لم جهلوا قبل أن يُسأل العلماء لم لم يُعلّموا) وفي هذا الكتاب يؤكد مرات ومرات ( أننا لا نستطيع أن نعالج قضايا الإرهاب التي يرتكبها الضعفاء ضد الأقوياء ؛ إذا لم نواجه ما يتم تجاهله من العنف الرهيب بمختلف صورهِ لما يمارسه الأقوياء على الضعفاء ) . ومن ثم فإن المبادرة بالإرهاب تنطلق من حائزى القوة ، وأن الطرف الضعيف يمثل في محاولاته رد فعل وإرهاباً مضاداً ، وليس العكس فيما يجرى عادة من تشخيص على ساحة السياسة الخارجية لدولة كالولايات المتحدة الأمريكية .

وفي هذا الإطار يضع المؤلف مشهد الأحداث الدامية والمروعة ، التي جرت في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على أرض الولايات المتحدة لأول مرة في تاريخها ، كما يناقش سياسات أمريكا في هذا الصدد قبل الحادث وبعده ، وفي مختلف الدول والقارات . وتشير بعض بيانات إدارة الأبحاث في الكونجرس إلى أن مجموع أنواع التدخل التي قامت به الولايات المتحدة عبر تاريخها (١٨٩٨-٢٠٠٣) يتجاوز (٢٠٠) حدث ذى طابع عسكري مباشر وغير مباشر وتحت مبررات مختلفة ، من أبرزها حرصها على دعم الاستقرار وبناء أنظمة ديمقراطية في مواطن التدخل ، وفي حساب المؤلف أن الولايات المتحدة هي (الدولة الرائدة في ممارسة الإرهاب) The Leading Terrorist State .

يظهر ذلك الدور بوضوح في فترة الحرب الباردة في معارك توازن القوى مع الاتحاد السوفيتي سابقاً ، ويتعاضد بعد انهيار ذلك العدو الأكبر . وبعده يختل التوازن العالمى مع حركة العولمة ولهاث الربح في السوق الطليقة ، قاعدة للاقتصاد العالمى ، ونفوذ الشركات المتعدية الجنسية ، وتصبح الولايات المتحدة القطب الأوحده فى التأثير والهيمنة على مجريات القرية الكونية . ويصدق تسميتها بالإمبراطورية الأمريكية إذ تمتلك أقوى الأسلحة فى العالم ، ويقتررب إنفاقها العسكرى من جملة الإنفاق العسكرى فى بقية دول العالم مجتمعة. هذا إلى جانب ما تمتلكه من مصادر القوة الاقتصادية والتكنولوجية والاتصالية والإعلامية .

وخلال استعراضه لأنواع التدخل الأمريكى فى شئون الدول ، التى كانت تسود فيها بعض الاضطرابات التى قد تهدد الأمن الأمريكى ومصالحه فى مواجهة الاتحاد السوفيتى ، شهدت فترة الثمانينيات قدراً وافراً من ذلك التدخل العسكرى المباشر وغير المباشر . ولجأت ضمن ما لجأت إليه خلال الحرب الباردة إلى اصطناع آلية المساعدات والمنح المالية والعسكرية لتلك الدول ، سواء بمعونتها لتغيير نظمها الراهنة ، أو فى حالات أخرى لدعم ومساندة نظمها التى توشك أن تنهار . وفى جميع الأحوال كانت تهدف سياسة المعونات إلى استقطاب القيادات المحلية المماثلة لها ، أو تقديم السلاح والقوة العسكرية أو التدخل الفعلى لضمان ما سعى بالاستقرار الذى يتيح المناخ الملائم للاستثمارات الأمريكية الجديدة أو الموجودة فعلاً .

ويشير المؤلف إلى أنه منذ عام ١٩٨٠ شهدت السياسة الأمريكية ما أطلق عليه (إرهاب الدولة) ؛ حيث أعلن (جورج شولتز) وزير الخارجية الأمريكية إذ ذاك أنه (يجب التركيز على وباء الشر الإرهابى الذى ينطلق من أولئك المحرومين من إعلاء الحضارة ذاتها فى محاولاتهم العودة إلى عهود البربرية فى العصر الحديث) . ومن ثم قررت إدارة ريجان أن القضاء على الإرهاب يجب أن يتصدى فى المقام الأول إلى كل من دول أمريكا الوسطى ودول الشرق الأوسط .

ولا يتسع المقال لما أشار إليه تشومسكى من نتائج التدخل في دول أمريكا الوسطى باسم (الحرب ضد الإرهاب) ، ويكفى أن نورد ما ذكره من أن تلك الحروب قد خلفت حوالى (٢٠٠) ألف من القتلى ، وأكثر من مليون من اللاجئين واليتامى والمعاقين .

بيد أننا نرى أن ثمة دلالة واضحة لجهروت القوة فيما ذكره عن الحرب التى اشتعلت لسنوات مع نيكاراجوا ، وفى مساندة أمريكا السافر لعصابات الكونترا ، خشية أن يتهدد نطاق تلك الدولة الشيوعية أمن الولايات المتحدة والاستقرار فى القارة اللاتينية . ومع ضراوة الحرب اضطرت حكومة نيكاراجوا إلى اللجوء إلى محكمة العدل الدولية ، والتى قضت بإدانة الولايات المتحدة (بممارسة الإرهاب الدولى ، واستخدام القوة غير المبررة قانونياً ، وانتهاك المعاهدات ، ودعتها إلى إنهاء ارتكاب الجرائم ، ودفع تعويضات ضخمة) ولم تدعن الدولة المعتدية لهذا القرار ، بل ضاعفت من حدة الحرب ، وأعطيت التعليمات لأول مرة بالهجوم على مؤسسات الخدمات الإنسانية . واضطرت نيكاراجوا إلى تقديم شكوى إلى مجلس الأمن ، والذى قضى (بمطالبة جميع الدول بمراعاة القانون الدولى) ، لكن الولايات المتحدة أبطلت القرار باستخدامها حق الفيتو ، ورغم ذلك كله فلم توقف الولايات المتحدة عدوانها .. حتى تمكنت من انتخاب مرشحها لرئاسة الدولة ، بعد حرب طاحنة جعلت نيكاراجوا من أفقر الدول فى العالم . ويختتم المؤلف عرضه لهذا الحادث ( إن القائد الحالى لمشكلة الحرب ضد الإرهاب - جورج دبليو بوش - إنما يمثل الدولة الوحيدة فى العالم التى أدانتها المحكمة الدولية بممارسة الإرهاب الدولى) .

ويتابع المؤلف مسيرة التدخل الأمريكى تحت دعوى (الحرب ضد الإرهاب) فى كوريا الجنوبية وفى موزمبيق وأنجولا ، امتداداً إلى جنوب إفريقيا حيث دعم وساند حكم الإبارتيد العنصرى فى مواجهة كفاح حزب المؤتمر الوطنى الديمقراطى ، والذى اعتبرت الولايات المتحدة السجين نيلسون مانديلا أحد قيادات كفاحه إذ ذاك (من أخطر الجماعات الإرهابية) .

أما عن الشرق الأوسط ، وهو موقع التركيز الثاني في الإرهاب الدولي منذ فترة الرئيس ريجان .. فإن أحداثه معروفة للقارئ العربي ، وما تزال مجرياته شاخصة أمامه . يذكر منها المؤلف بطبيعة الحال المساندة الكاملة والشاملة التي تقدمها الولايات المتحدة لإسرائيل ، ومنها المعونة المالية والعسكرية التي تعد من أضخم المعونات لدولة أجنبية ، ويخص بالذكر طائرات الأباتشي التي تنفرد أميركا بصنعها ، والتي شاركت وتشارك في التدمير والاغتيال على أرض فلسطين . هذا فضلاً عن دعمها الدبلوماسي على امتداد مختلف رؤسائها في إبطال كل محاولة للمجتمع الدولي في مجلس الأمن وفي الجمعية العمومية للأمم المتحدة ؛ من أجل الوصول إلى حل سلمي للقضية الفلسطينية خلال ربع قرن مضى .

ومن آيات دعم الإرهاب في الشرق الأوسط ما جرى قبل سنوات أحداث ٩/١١ من المساندة العسكرية للولايات المتحدة في الهجوم الإسرائيلي على الأراضي المصرية عام ١٩٦٧ من خلال دور الغواصة الأمريكية ليبرتي ، ثم غزو لبنان عام ١٩٨٢ بقيادة شارون وما ارتكبه من جرائم الحرب في إبادة مخيمات صبرا وشاتيلا . ويخص بالذكر من الإرهاب الذي تعرض له لبنان حادث السيارة المعبأة بالمتفجرات في أوائل الثمانينيات والتي وضعت خارج أحد المساجد لتنتطلق في توقيت خروج المصلين من المسجد ، وتؤدي إلى قتل (٨٠) شخصاً وإصابة أكثر من (٢٥٠) من المصلين والمارة . وقد نسب هذا الحادث إلى تدبير المخابرات الأمريكية والبريطانية مما لم يمار أحد في صحة هذا الخبر ؛ يضاف إلى ذلك ما حدث في مارس ١٩٨٥ حين قامت القوات الإسرائيلية في وزارة شيمون بيريز فيما عرف بعملية القبضة الحديدية لتأديب (القرى الإرهابية) في جنوب لبنان . كذلك لم يسلم السهل التونسي من ضربه بالقنابل من الطائرات الإسرائيلية التي أودت بحياة (٧٥) شخصاً من الفلسطينيين والتونسيين . وغضت الولايات المتحدة الطرف عن هذا العدوان الإرهابي لدولة صديقة مع علمها به مسبقاً ، ومع وجود الأسطول السادس الأمريكي الذي استقر كامناً في البحر في تلك

المنطقة . وقد استحقت الغارة قنينة وزير الخارجية الأمريكى لوزير الخارجية الإسرائيلى، ومع أسفه على ما نجم عنها من ضحايا !!

ثم تقع أخيراً كارثة ٢٠٠١/٩/١١ بكل ما فيها من خراب ودمار للحجر والبشر، ويدين العالم كل ما جرى . ويعبئ الرئيس بوش الاتجاه نحو استئصال شافة الإرهاب الدولى وبخاصة فى دول (محور الشر) وجماعاته الإرهابية وتبرز فيها أصابع الاتهام المباشر نحو أفغانستان وطالبان وإيران والعراق . وتتوالى وقائع الحرب ضد الشر ودوله كما هو معروف بدءاً بإعلان الحرب على أفغانستان، ثم يتجدد هدف القضاء على النظام العراقى بدعوى امتلاكه أسلحة الدمار الشامل وإحلال نظام ديمقراطى محل نظام الطاغية صدام حسين . وقد كانت النية مبيتة لغزوه واحتلاله رغم المعارضة شبه العالمية لهذا الأسلوب ، ورغم تقارير مفتشى الأسلحة ، وبصرف النظر عن موافقة مجلس الأمن . وتم تزييف كثير لحيثيات ومبررات الغزو ؛ لتقود الحملة العسكرية بمفردها مع بريطانيا دون غطاء شرعى أو قانونى .

وفى هذا الصدد يشير المؤلف إلى تناقض موقف الولايات المتحدة فى هذه الحالة مع موقفها من حرب العراق مع إيران خلال الثمانينيات . ويتجاهل الشعب الأمريكى أن دولته إذ ذاك قد شجعت ودعمت صدام حسين ، ولم تدخر وسعاً فى إعانته على تنمية أسلحة الدمار الشامل ، وغضت الطرف عن استخدام الغاز فى تلك الحرب وفى إبادة لتمررد الكردى فى حلبجة . ولا تفسير لهذا التناقض إلا التحديد المنفرد لما تتصوره القوة من إرهاب فى ضوء تغير مواطن مصالحها وتحالفاتها .

ويستخلص المؤلف من عرضه لأحداث التدخل الأمريكى بما يملك من قوة ووسائل وبما يتخذ من ذرائع بمختلف صوره ، إنما هو رد فعل فى مواجهة ما يهدد مصالحها من إرهاب الدول أو الجماعات الإرهابية ، أو أنها تقوم بعمليات استباقية لمنع وقوع الإرهاب الذى تنوى مصادر الشر أن تقوم به .

وهذا يعنى أن غيرها هو الذى يمارس الإرهاب وان تبرير تدخلها يتمثل فى (مواجهة الإرهاب) . ويرى المؤلف من خلال استعراضه التاريخى أنها المصدر الأول

للإرهاب ، وأن ما تقوم به الدول أو الجماعات الأخرى إنما هو (مواجهة لإرهاب القوى وقهر الضعيف واستغلاله ، أو فيما يطلق عليه بأنه (حرب عادلة) .

ويتعرض المؤلف تهمة البعض له بأنه متحيز ومبرر لهجمات الإرهابيين . وأجابه بالعكس ؛ إذ إنه متهم ومهموم بعدم تكرار حوادث الإرهاب على الولايات المتحدة أو على غيرها من الدول . ومن ثم فإنه إذا أريد إيقاف تلاحق الموجات الإرهابية كما يحدث راهناً ، فلا بد لنا من البحث المتعمق عن جذور أسبابها ، لا مجرد أعراضها . وهو يرى أن مصدرها في الأغلب والأعم إنما هو سطوة القوة وفرض الإذعان والاستسلام لصالحها ومواقفها . ومن هنا جاء تذكري لمقولة الإمام علي في مآثرات الكتاب ومحاولة تطبيقها على قضية الإرهاب ، حيث لا ينبغي أن تُسأل الدول الفقيرة والجماعات المقهورة عما ترتكبه من جرائم الإرهاب ، قبل أن تسأل الدول القوية عما تمارسه من إرهاب أشد وأعنف على الدول الفقيرة والجماعات المضطهدة . ويؤكد المؤلف أن محاولته في تشخيص جذور الإرهاب إنما هي قضية مطروحة في مجلس الأمن، بل وأخيراً في صفحة (وول ستريت جيرنال) المحافظة ومطروحة كذلك منذ أربعين عاماً في الوثائق السرية غير المنشورة في البيت الأبيض .

ويختتم استعراضه لدور الولايات المتحدة وتدخلها بالقوة في فرض سياستها بالتساؤل : كيف يمكن العمل على إيقاف موجات الإرهاب التي غدت تهدد البشرية كلها ؟ وفي رأيه أن هناك طريقاً واحداً يمكنه أن يحد ويقلل كثيراً من مخاطر العنف والإرهاب ، ويبدأ هذا الطريق بأن تقوم الولايات المتحدة ذاتها بالاستجابة المتعمقة والصحية لفهم أسباب ما يجري ، وبالتوقف عن الدعم المادي والعسكري أو بالمشاركة الفعلية فيما أطلقت عليه (الحرب ضد الإرهاب) .. بيد أنه يرى أن هذا الاقتراح لن يجد سبيله إلى أجندة أمريكا المتورمة حالياً بداء القوة والهيمنة .

ومرة أخرى يسند اقتراحه بما أدى إليه ما قدمته الولايات المتحدة من دعم وتزويد بالمال والسلاح في حرب صدام حسين مع النظام الإيراني ، ويؤكد أن ذلك الدعم

الأمريكي والبريطاني هو الذى مكّن الطاغية صدام من القهر والفتك بشعبه ، وهو الذى مكّنه من تطوير أسلحة الدمار الشامل .

وقد اعتبرته حليفاً وصديقاً لها حين تغاضت عن جرائمه فى استخدامه للأسلحة المخطورة ، طالما كان يقدم لها الخدمات التى ترعى مصالحها . ولعلنا نتذكر كيف عفت وتسامحت معه عند هجوم قواته على سفينة البحرية الأمريكية فى الخليج التى قتل خلاله (٣٥) من طاقمها ، وعندما أصابت إحدى صواريخه بارجة حربية وأدت إلى مقتل (٣٧) من قواتها . وهل يمكن أنه يتصور أحد إمكانية التغاضى عن مثل هذا العدوان على القوات الأمريكية، لو لم يكن صدام فى مكان الصدارة من أصدقائها ؟ ثم تعود بعد سنوات قليلة حين تغيرت الأوضاع ، لتوجيه الاتهام لصدام على ما ساعدته عليه فى خدمة مصالحها ، ثم لينتهى الأمر باحتلال العراق ، والبحث عن صدام حياً أو ميتاً !!

أما بعد :

فينتهى تلخيصى لما ورد فى كتاب تشوفسكى (القوة والإرهاب) ملتزماً بأفكاره ووقائعه وتشخيصه قد المستطاع ، وهى فى جميع الأحوال رؤية خاصة تستحق التأمل ، سواء رضى القارئ عنها جميعها أو عن بعضها أو أنكرها غاية الإنكار . وستظل قضية الإرهاب الدولى معنا فى هواجسنا وأفكارنا وتحليلاتنا ومعاناتنا زمناً طويلاً .

## (٢) مفهوم الإرهاب والمقاومة رؤية عربية - إسلامية

### مقدمة :

يعد الإرهاب بمفهومه العام ، "الاستخدام غير المشروع للعنف" ظاهرة قديمة جديدة ، لكن الأضواء سلطت عليه في السنوات الأخيرة ، في ظل الأزمة الأخلاقية التي يعيشها النظام الدولي ، وفي ظل الانتقائية في تطبيق قواعد القانون الدولي والشرعية الدولية وتوظيفها سياسياً ، مما تسبب بزيادة أعمال العنف في مناطق مختلفة من العالم .

ورغم الاتفاق الدولي على مفهوم الكفاح المشروع للدول والشعوب ، فإن المجتمع الدولي لم يتمكن من الاتفاق على تعريف واحد ومحدد لمفهوم الإرهاب ، نظراً لاختلاف المعايير بين الدول ، وتباين الرؤى حولها ، فمصطلح العنف واستخدام القوة مفهوم نسبي الدلالة له وظيفته واستخداماته المحددة ، وظروفه وبيئته ، وهو ليس مجرد لفظ يعد بذاته مستحسنًا أو مستقبحاً<sup>(\*)</sup>.

كما يتوسع بعض الباحثين والخبراء في مفهوم الإرهاب ليشمل الهجمات ضد الأشخاص وضد الممتلكات ، ويأخذ بعضهم بالحسبان بواعث الفاعلين ، فيفرق بين الهجمات الجنائية والهجمات السياسية . ويخلط بعضهم الآخر بين الإرهاب المحظور والحق في المقاومة والاستخدام المشروع للقوة لإنهاء الاستعمار والاحتلال وممارسة الحق في تقرير المصير .

(\*) مركز دراسات الشرق الأوسط في الأردن : أسهم في صياغتها خمسون مختصاً وخبيراً ، ووقع عليها مئات من الشخصيات العربية من أربعة عشر دولة ، وتم إصدارها لمزيد من التوقيعات في يوليو / تموز ٢٠٠٣ . ووجدنا أن من المناسب ضمها إلى دراسات هذا الكتاب .

غير أن النصوص والأعراف الدولية والإنسانية وأحكام الشريعة الإسلامية تؤكد التباين بين المقاومة والجهاد من جهة والإرهاب من جهة ثانية ، في مختلف الجوانب القانونية والسياسية والاجتماعية، وبالوسائل التي تستخدم في الحالين والهداف المرجوة.

ومع الإقرار العالمى بحق تقرير المصير ، في مداولات الأمم المتحدة ، وفي الاتفاقيات الدولية المعنية بحقوق الإنسان وعلى رأسها العهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية ، والعهد الدولى الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية لعام ١٩٦٦ ، وبتحوله من مجرد مبدأ سياسى إلى حق قانونى ، فقد أصبح من المحتم القول بأنه يقع على كل دولة واجب الامتناع عن الإتيان بأى عمل قسرى ، يجرم الشعوب غير المستقلة من حقها فى تقرير مصيرها ، سواء أكانت خاضعة للاحتلال أم للاستعمار .

وقد أسفرت جهود المجتمع الدولى بشأن تحديد مفهوم الإرهاب منذ أن طرح الموضوع أمام عصبة الأمم عام ١٩٣٧ وما تلاها من جهود ، إلى استنتاج أن الاستعمار هو أحد أهم دوافع أعمال المقاومة التى يسميها المستعمرون واحتلون بالإرهاب ؛ حيث تشير مداولات الجمعية العامة للأمم المتحدة طوال عقد السبعينيات إلى أن من أهم الأسباب الجوهرية لاستخدام العنف استمرار الاستعمار فى السيطرة والهيمنة على الأقاليم التى كانت خاضعة له يوماً ما ، وإنكار حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وبهذا تكون الأمم المتحدة قد قدمت فهماً معيارياً وموضوعياً برد الظاهرة إلى دوافعها وأسبابها ، وقد ميزت بين الإرهاب بوصفه جريمة دولية ، والكفاح المسلح بوصفه نشاطاً من أنشطة حركات التحرر الوطنى المشروعة ، وهو بلا شك اختلاف جوهري فى الطبيعة والمقاصد .

وفى إطار هذا المفهوم عقدت الجمعية العامة ثلاث عشرة اتفاقية دولية، وأسندت فى موقفها هذا العديد من القرارات والتوصيات الصادرة عنها ، ولعل أولها توصيتها رقم (١٥١٤) لسنة ١٩٦٠ الخاصة بمنح البلدان والشعوب المستعمرة استقلالها ، والتى اشتهرت فيما بعد بقرار " تصفية الاستعمار " وكذلك توصيتها رقم (٣١٠٣) لسنة ١٩٧٣ بشأن المبادئ المتعلقة بالمركز القانونى للمقاتلين الذين يكافحون ضد السيطرة الاستعمارية والاحتلال الأجنبى والنظم العنصرية، لا بإضفاء المشروعية على عملهم فحسب، وإنما بشمول هؤلاء المقاتلين أيضاً بقواعد القانون الدولى المعمول به فى

التزاعات المسلحة ، مثل : اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩ الخاصة بجرحى الحرب وأسرىهم، وحماية المدنيين .

وفي هذا السياق اعترفت الجمعية العامة للأمم المتحدة مراراً بحقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتصرف مثل قرارها رقم (٣٢٣٦) لعام ١٩٧٤ بند (١،٢) ، وقرارها رقم (١٧/٣٩) لعام ١٩٨٤ بند (٣) ، وقرارها رقم ١٤٩/٤٩ لعام ١٩٩٥ في البند (١،٣) وبحقه في استرجاع حقوقه بالوسائل المتاحة كافة بما في ذلك المسلح قرار الجمعية العامة رقم (٣٢٣٦) لعام ١٩٧٤ بند (٥) ، ورقم (١٧/٣٩) لعام ١٩٨٤ بند (٢) ، كما أن القانون الدولي ، ومنذ قيام الأمم المتحدة ، قد حظر اللجوء إلى القوة المسلحة أو التهديد بها في إطار العلاقات الدولية ، غير أنه أجاز اللجوء إلى القوة بأشكالها المختلفة في حالات الدفاع الشرعي ضد الاحتلال بوصفها وسيلة لممارسة حق تقرير المصير ، والوصول إلى الاستقلال الوطني .

وقد أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بمشروعية نضال الشعوب في سبيل التحرر من الهيمنة الاستعمارية والسيطرة الأجنبية ، بالوسائل كافة ، بما في ذلك القوة المسلحة ، كما أقرت تقديم دول العالم المساعدات للشعوب التي تناضل في سبيل تقرير المصير ، وإن تساعد جهود الأمم المتحدة في هذا المضمار ؛ حيث يمكن لهذه الشعوب أن تتمتع بدعم خارجي في الكفاح المسلح الذي تخوضه ضد دولة استعمارية أو عنصرية أو ضد الاحتلال الأجنبي، دون أن تحتج الأخيرة بأن هذا الدعم يعد من قبيل التدخل في شؤونها الداخلية، وفق قرار الجمعية العامة رقم (٣٠٧٠) لعام ١٩٧٣ في البندين الثاني والثالث .

وإزاء هذه الجهود المبذولة من الأمم المتحدة لحصر مفهوم الإرهاب وعدم خلطه بحق المقاومة ومشروعيتها ، كانت الولايات المتحدة غير متعاونة لإنجاح هذه الجهود بسعيها إلى تغييب المعايير وإحلال الانتقائية محلها ؛ لكي تنفرد بعد ذلك في تصنيف أعمال العنف وفق ما تشاء ، وقد تصاعد اتجاه توسيع مفهوم الإرهاب لديها ليشمل أعمال المقاومة والجهاد والكفاح المسلح المشروعة ، ولاسيما بعد توقيع اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣ ، إثر انعقاد مؤتمر شرم الشيخ عام ١٩٩٦ وضغط أمريكا بمهدف إدانة أعمال المقاومة المسلحة الفلسطينية تحت اسم " الإرهاب " .

وقد أحدثت تداعيات الهجوم على نيويورك وواشنطن ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١ هزة في النظرية الأمنية الأمريكية السائدة ؛ الأمر الذي شجع الإدارة الأمريكية على تغيير سلوكها الدبلوماسي بلجوتها إلى لغة العنف والتهديد والحصار العسكري والاقتصادى للآخرين ، وإعلان تقسيم العالم إلى معسكرين: " إما مع أمريكا أو مع الإرهاب"، حيث صبت جام غضبها وقوتها على العرب والمسلمين دولاً وحركات وأفراداً، على خلفية اتهامها أفراداً عرباً ومسلمين بالوقوف وراء هذا الهجوم .

وقد استغل اللوبي الصهيوني بنفوذه العالمى والسياسى والاقتصادى هذه الحادثة لتشجيع التطرف اليميني فى الإدارة الأمريكية ، وتحريض العالم الغربى ضد كل ما هو عربى وإسلامى .

وفى ظل هذه الظروف المستجدة ، ظهرت الحاجة إلى إعادة تأكيد المفاهيم الإنسانية السليمة للمقاومة والكفاح والجهاد ، والحفاظ عليها حقوقاً إنسانية ثابتة ، والحفاظ على شرعيتها وضمان المساندة الدولية لها ، وفصلها تماماً عن أى أعمال يمكن أن توصف بالإرهاب والوحشية ، وهو ما تحاول هذه الوثيقة التأكيد عليه ، بالاستناد إلى العمق الحضارى والصالة الفكرية والتطلع المستقبلى للأمة العربية والإسلامية التى يؤكد تاريخها على أنها أمة تكافح الإرهاب وترد العدوان وتدفع الظلم. ولذلك فإن إقحام مصطلح الإرهاب على الإسلام والمسلمين والعرب ، إنما ينطوى على ظلم بين للقيم العربية الإسلامية الأصيلة ، ويتسبب فى إيجاد مغالطات خطيرة تجاه نضال الشعوب العربية والإسلامية من أجل التحرر من الاحتلال الأجنبى واستعادة حقوقها المشروعة .

### أولاً : الديباجة :

- رغبة فى تشكيل رؤية عربية إسلامية لمفهوم الإرهاب ، وتمييزه عن مفهوم المقاومة المشروعة ، وإسهاماً من مثقفى الأمة فى صياغة مفهوم دولى للإرهاب ، وحرصاً منا على المحافظة على التفاعل الحضارى بين الأمم .
- والتزاماً بالمبادئ الدينية والأخلاقية السامية التى تمثلها قيمنا الحضارية العريقة التى تدعو إلى حماية حقوق الإنسان التى نصت عليها مبادئ القانون الدولى وأسسها .
- وتأكيداً على حق الشعوب فى مقاومة الاحتلال الأجنبى والتصدى للعدوان ، وتحرير الأرض ، وتقرير المصير ، ونيل الاستقلال بمختلف الوسائل ، بما فى ذلك الكفاح المسلح .

● وتماشياً مع النظام الأساسى للمحكمة الجنائية الدولية - التى تأسست فى تموز / يوليو ٢٠٠٢ - الذى ألزم جميع الدول بالامتناع عن استعمال القوة أو التهديد باستعمالها ضد السلامة الإقليمية أو الاستقلال السياسى لأى دولة على أى نحو لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة .

أعدت هذه الوثيقة للتفريق بين الإرهاب من جهة ، وأعمال المقاومة المشروعة والكفاح المسلح من جهة ثانية، ولتحول دون اتخاذ الاتهام بالإرهاب ذريعة لانتهاك حقوق الإنسان، وسيادة الدول، والتدخل فى شؤونها الداخلية .

## ثانياً : متن الوثيقة :

### مفهوم الإرهاب :

**الإرهاب :** هو استخدام غير مشروع للعنف أو تهديد باستخدامه ببواعث غير مشروعة ، يهدف أساساً إلى بث الرعب بين الناس ، ويعرض حياة الأبرياء للخطر ، سواء أقامت به الدولة أم مجموعة أم فرد ؛ لتحقيق مصالح غير مشروعة ، وهو بذلك يختلف كلياً عن حالات اللجوء إلى القوة المسلحة فى إطار المقاومة الشرعية .

وهو بهذا انتهاك للقواعد الأساسية للسلوك الإنسانى ، ومناف للشرائع السماوية والشرعية الدولية لما فيه من تجاوز على حقوق الإنسان .

وتشير ظاهرة انتشار الإرهاب فى العالم إلى أزمة فكرية تعيشها المجتمعات المختلفة، التى ترتبط بفلسفة العنف فى تحقيق أهدافها ، ويعبر تفشى أعمال العنف على الصعيد الدولى عن إشكالية سياسية تتعلق بطبيعة العلاقات الدولية المستندة إلى تحكم الدول القوية عسكرياً فى مصالح الدول الأضعف .

### الجهاد والمقاومة :

يطلق لفظ الجهاد فى النصوص الإسلامية بمعناه العام على مقاومة العدو أو مجاهدة النفس أو الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر ، وقد اصطلح الفقهاء على أن الجهاد بمعناه الخاص هو " بذل الوسع والطاقة فى القتال فى سبيل الله بالنفس والمال واللسان بهدف نصرته الإسلام والمسلمين"؛ أى قتال من قاتل المسلمين وأخرجهم من ديارهم، أو

القتال لأجل ردع المعتدين ودفع عدوان واقع ، أو لإخراج المعتدين من أرض المسلمين ، أو القتال دفاعاً عن النفس والمال والعرض ؛ حيث يعد كل ذلك جهاداً (في سبيل الله). وبذلك فإن مقاومة الاحتلال الأجنبي ودفع ظلمه ، وعدوانه عن الأنفس والممتلكات والأعراض يعد جهاداً (في سبيل الله).

وقد حرمت الشريعة الإسلامية العدوان في الجهاد مثل قتل من لا يجوز قتله من النساء والأطفال وكبار السن ورجال الدين المنقطعين للعبادة ، وسائر المدنيين غير المقاتلين ممن لا يخدمون تحت السلاح لدى المعتدين ، كما حرمت تجاوز الحد المشروع في القتل ، أو القتال لأجل الفساد في الأرض ، أو نهب خيرات الشعوب ، أو تخريب زروعها وثمارها وأشجارها.

وفي الوقت الذي تقرر فيه الشريعة الإسلامية حق المقاومة المشروعة وفق ما ورد أعلاه ، فإن التراث الفكري الغربي ذاته قد أسس لحق مقاومة الطغيان ، ورفع شعارات الحرية والعدالة والمساواة التي نادى بها روسو وفولتير وغيرهم من الفلاسفة في أوروبا قبل قرون عدة ، كما أن المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة والمادة (٢) من الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب ، ووفقاً لما قرره القانون الدولي وفقهاؤه ، ووفقاً للحق الطبيعي في الدفاع عن النفس والمال والأموال والأعراض والحريات ، فإن من حق الشعوب التي تتعرض للاحتلال والاستعمار والعدوان والطغيان المسنودة بالقوة ، اللجوء إلى المقاومة المسلحة بوصفها مقاومة مشروعة ، وفي هذه الحالة تنطبق اتفاقيات الحماية الدولية المختلفة على المقاتلين من أجل الحرية ضد الاستعمار والاحتلال أو الاضطهاد ، وبذلك تتمتع الفئات التي تمارس هذا الحق في المقاومة المشروعة بمركز قانوني معتبر ، حسب هذه الاتفاقيات ، بما يتيح لها التصدي للاستعمار والاحتلال .

وقد أكدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها رقم (٣٢٤٦) الصادر في ١٤/١٢/١٩٧٤ على شرعية حق الشعوب في الكفاح المسلح في سبيل تحريرها ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية هي مخالفة لميثاق الأمم المتحدة وإعلان مبادئ القانون الدولي الخاصة بالعلاقات الدولية والتعاون بين الدول ، وللإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، " وقد أكدت الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب الصادرة في عام

١٩٩٨ فى المادة الثانية على أنه لا تعد جريمة حالات الكفاح بمختلف الوسائل ، بما فى ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبى، والعدوان من أجل التحرر وتقرير المصير".

وبناء على ما تقدم فإن المقاومة هى : استخدام مشروع لكل الوسائل بما فيها القوة المسلحة لدرء العدوان ، وإزالة الاحتلال والاستعمار ، وتحقيق الاستقلال ، ورفع الظلم المسنود بالقوة المسلحة ، بوصفها أهدافاً سياسية مشروعة ، وهو ما يتفق مع القانونى الدولى وتأييده الشريعة الإسلامية .

وتستند مشروعية المقاومة إلى مجموعة من المبادئ القانونية الثابتة ، كحق المقاومة استناداً لعدم الولاء والطاعة لسلطة الاحتلال ، واستناداً إلى حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، والدفاع عن النفس ، والاستناد إلى قرارات الأمم المتحدة ، والاتفاقيات الدولية الخاصة بحماية المدنيين أثناء الحروب .

ومن ذلك يتبين أن المقاومة عمل مشروع لتحقيق مصالح الشعوب التى تتعرض للعدوان والاحتلال ، فيما الإرهاب يمثل اعتداء على حق هذه الشعوب فى الحياة والحرية وتقرير المصير .

## مقاومة الإرهاب الإسرائيلى

وفىما يتعلق بدولة الاحتلال فى فلسطين ، فإن قيامها كان على حساب شعب آخر وهى الطرف المعتدى على الشعب الفلسطينى والمحتلة لأرضه ، وما تستخدمه من وسائل التعذيب والاعتقالات الجماعية والقتل وارتكاب المجازر وقتل الأطفال وهدم البيوت ومصادرة الأراضى وتجريفها ، وما تمارسه من البطش والظلم والتعجير والنفى بحق الشعب الفلسطينى هو الإرهاب بعينه ؛ لأنه يعد جريمة فى عرف الدول كلها وفق ميثاق الأمم المتحدة ، ومناف لكل القيم الإنسانية فضلاً عن مخالفته للشريعة الإسلامية، ولهذا فإن أعمال المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلى هى مقاومة مشروعة ، وهى لا تختلف عن مقاومة ديغول وتشرشل للإرهاب النازى فى أوروبا ، أو المقاومة الأمريكية للاحتلال الإنجليزى لأراضيها قبل قرون ، أو مقاومة الشعوب الأخرى للاستعمار والاحتلال الأجنبى لتحقيق الاستقلال وتقرير المصير .

## توصيات :

- ١ - ترى هذه الوثيقة أن الحد من ظاهرة الإرهاب ودعم المقاومة المشروعة يتطلب ما يلي:  
السعى لوضع مفهوم متفق عليه للإرهاب ، وتمييزه عن المقاومة المشروعة ، وتعد هذه الوثيقة مساهمة في هذا المضمار .
- ٢ - المبادرة السريعة والجادة إلى تعزيز التفريق بين الممارسات الإرهابية التي تقوم بها إسرائيل وغيرها من الدول ، وأعمال المقاومة المشروعة التي تقوم بها حركات التحرير الوطنية لتحقيق أهدافها في تقرير المصير والاستقلال ؛ حتى لا تختلط المفاهيم كما هو الحال في فلسطين وغيرها .
- ٣ - تمكين الشعوب الواقعة تحت الاحتلال أو الاستعمار من تحقيق استقلالها ونيل حقها في تقرير المصير ؛ حتى لا يكون ذلك ذريعة لأعمال عنف يختلف الناس في تسميتها بالإرهاب أو المقاومة المشروعة .
- ٤ - تفعيل التعاون الدولي المنظم على أساس العدل والمساواة ورعاية المصالح المشتركة دون هيمنة أو انتقائية ، وتفعيل القانون الدولي فيما يتعلق بحماية حق الشعوب في نيل استقلالها وتقرير مصيرها .
- ٥ - السعى لتوفير الحماية الكافية للمدنيين في الحروب ، بما في ذلك تأمين إيصال المساعدات الطبية والإنسانية للمحتاجين منهم .
- ٦ - مواجهة إرهاب الدولة والحد من تفاقمه بالعمل على بلورة موقف دولي موحد ضد الدول التي تمارسه وبخاصة إسرائيل ، والعمل على عزل هذه الدول حتى تتوقف عن ممارسة الإرهاب ورعايته .
- ٧ - التوقف عن التهديد بالقوة العسكرية والعقوبات الاقتصادية ضد الدول الضعيفة ، واستغلال مواردها من جانب الدول الأقوى بصورة استعمارية ، والعمل بدلا من ذلك على تشجيع إقامة علاقات التعاون والسلام الدوليين .
- ٨ - توسيع دوائر الحوار الثقافي والحضارى بين العالم العربى والإسلامى من جهة ، والعالم الغربى من جهة أخرى ؛ لتقليل الحاجة إلى اللجوء إلى القوة والعنف فى أى خلافات بين الجانبين .

### (٣) التواطؤ الأمريكي في أحداث ١١ سبتمبر

أهداني صديق دراسة مستفيضة بعنوان هذا المقال لأستاذ في إحدى الجامعات الأمريكية، هو الدكتور ولتر إي ديفيز بتاريخ ٤ إبريل ٢٠٠٣، ومسجلة على موقعه في شبكة الإنترنت. ويفتح الأستاذ دراسته بالسؤال: (لماذا لم يكن مستطاعاً الحيلولة دون وقوع الهجوم الذي حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١؟) ويتابع القول بأن (هناك جوانب كثيرة تتعلق بالحكايات الرسمية المتعارضة التي لا تتطابق مع الحقائق المعروفة، والتي تطالبنا بأن نتنكر للفهم العام السليم، كما أنها تتضمن نمطاً من التغطية وتزييف المعلومات المرتبطة بواقع ما جرى فعلاً). وفي هذا المقال يقول كاتبه (لقد حددت (٢٠) مسألة من جوانب ذلك الحدث ووقائعه في صورة حقائق وأسئلة، يدعونا أي واحد منها إلى البحث والتمحيص والتساؤل).

وتشير جميع تلك الوقائع، التي لم تكشف عنها وسائل الإعلام الكبرى، إلى أن أكثر التفسيرات مصداقية للأحداث التي أحاطت بهجوم ١١ سبتمبر تكمن في أن (إدارة بوش كانت متواطئة في تعاملها مع ذلك الهجوم الإرهابي) كما أن من بين تلك الأسباب ذات الدلالة البينة (يعود إلى أن ذلك الهجوم قد تم توظيفه من قبل إدارة بوش ليكون ذريعة ومبرراً لشن حرب لا تنقطع أبداً على العالم، وفرض إجراءات صارمة من الكبت والقمع في الداخل). هكذا يبدأ المقال تسأوله، ويقدم الإجابة عنه ومبينا من خلال (٢٠) من الشواهد والحجيات ما يثبت صحة تلك الإجابة التي تؤكد (تواطؤ إدارة بوش) في عدم منع حدوث ما حدث.

وفيما يلي إيجاز لتلك الشواهد والحجيات :

(١) لقد كانت جميع أجهزة المخابرات في الولايات المتحدة الأمريكية على علم مسبق بأن هجوماً سيقع على الأرض الأمريكية، وأن طائرات تجارية سوف تستخدم

فيه كقنابل، كذلك كانت على علم بالتوقيت التقريبي وبالأهداف المتوقعة. وقد تواترت المعلومات والتحذيرات من احتمالات وقوعه منذ عام ١٩٩٧ من دول مثل روسيا وفرنسا وإسرائيل والفلبين ومصر، ومن قبل المخابرات الغربية، ثم أنه قبل الهجوم بأسبوعين أكد بعض أعضاء المخابرات المنتشرين في الميدان بمختلف مناطق الشرق الأوسط وأوروبا بقرب وقوع الهجوم في أى لحظة، وقدمت أسماء مائة من أعضاء القاعدة المشتبه فيهم للقيام بهذا الهجوم. لكن وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالية أوقفت التحقيقات في هذا الشأن، وهددت خبراء الميدان بالمحاكمة بأنهم إذا ما أذاعوا أى معلومات عن الهجوم المتوقع قريباً فسوف يحاكمون تحت طائلة قانون الأمن القومي. وها نحن اليوم نجد أن بعض خبراء الميدان يقاضون الوكالة المركزية من أجل أن تسمح لهم بالحرية في تقديم شهادتهم إلى الرأى العام.

(٢) هناك دليل لا يرقى إليه الشك في أن قوات الطيران الحربى الأمريكى في طول البلاد وعرضها كانت قابعة تماماً في مرابضها صبيحة يوم ١١ سبتمبر. أضف إلى هذا أن إجراءات الأمن الروتينى التى تقوم بها تلك القوات فوق مواقعها قد أوقفت لمدة ساعة، في الوقت الذى كانت تجرى فيه أحداث الهجوم. وقد كان من الممكن للروتين اليومى لتلك الطائرات أن يبادر في الحيلولة دون حدوث ذلك التأثير المدمر أو على الأقل يخفف من حدته، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

وفيما يلي التوقيت الذى تم فيه تتابع الأحداث في ذلك الهجوم الإرهابى :

- في الساعة ٨,٤٦ صباحاً ارتطمت طائرة الخطوط الجوية الأمريكية رحلة رقم (١١) القادمة من (بوسطن) بالبرج الشمالى لمركز التجارة العالمى.
- وفي الساعة ٩,٠٣ ارتطمت طائرة الخطوط الجوية المتحدة رحلة رقم (١٧٥) والقادمة من (بوسطن) بالبرج الجنوبى للمركز.
- وفي الساعة ٩,٤٠ ضربت طائرة الخطوط الجوية الأمريكية رحلة رقم (٧٧) والقادمة من (دالاس) في جنوب أمريكا مبنى البنتاجون (وزارة الدفاع).

- وفي الساعة ١٠،١٠ تحطمت طائرة الخطوط الجوية المتحدة رحلة رقم (٩٣) والقادمة من مطار (نيويورك) في شانكفيل بولاية بنسلفينيا.

ويلاحظ الكاتب أن مطار أندروز وهو قاعدة ضخمة للطيران الحربي ، يرابض على أرضها سربان من الطائرات النفاثة المقاتلة، وفي حالة استعداد تام دائماً، ومنوط بها حماية سماء أجواء واشنطن ، ولا يبعد هذا المطار الحربي عن موقع البنتاجون بأكثر من (١٠) عشر أميال. لكنها فشلت في أداء مهمتها على الرغم من مرور أكثر من ساعة منذ معرفتها ببدء الغارة الأولى (الساعة ٨،٤٦ على البرج الشمالى لمركز التجارة العالمى، وبين تحطم الطائرة رقم (٩٣) فى الساعة ١٠،١٠)؛ حيث لم تتحرك أية طائرة من سربى أندروز لحماية المدينة . هذا على الرغم من أن الطيران الحربي له صلاحية كاملة، دون إذن من البيت الأبيض، فى اعتراض أى طائرة تجارية فى أحوال الطوارئ. ومع هذا فإن شيئاً من ذلك لم يحدث.

وتفصيل ذلك التجاهل ما نجده فى حالة طائرة الخطوط الجوية الأمريكية رحلة رقم (١١) التى أقلعت من مطار بوسطن لوجان فى الساعة ٧،٤٥ ؛ حيث كان آخر اتصال روتينى بينها وبين برج المراقبة الأرضية فى الساعة ٨،١٣ وفى الفترة من ٨،٢٠ ،٨،١٣ انقطع الاتصال بينها وبين برج المراقبة ، كما أشار الرادار إلى أن الطائرة قد انخرقت عن مسارها المحدد . أضف إلى ذلك أن اثنين من مضيفى تلك الطائرة قد قاما بالإبلاغ عن اختطافها ، وعن استخدام الخاطفين لأسلحتهم فى الاعتداء على الطاقم والركاب. وهكذا أصبح من الواضح تماماً أن الطائرة رحلة رقم (١١) فى حالة طوارئ.

ولكن توقيت المطار الرسمى كان يشير إلى أنه لم يتم الاتصال به إلا متأخراً عن ذلك أى بعد (٢٠) عشرين دقيقة فى الساعة ٨،٤٠. ويبلغ الحال صورته المأسوية حين نعلم بأن الطائرات المقاتلة لم تغادر المطار إلا فى الساعة ٨،٥٢ أى بعد (٣٢) دقيقة من انقطاع الصلة بهذه الطائرة أى فى الساعة ٨،٢٠ وهكذا تحركت الطائرات بعد أن كان البرج الشمالى لمركز التجارة العالمى قد تحطم فعلاً. ومع ذلك فإنه لم يتم اعتراض الطائرات التجارية الأخرى رقم (١٧٥)، التى حطمت البرج الجنوبى للمركز التجارى

العالي، وبعد (١٧) دقيقة من تحركها . وكذلك الشأن في الطائرتين رقم (٧٧) التي ضربت البنتاجون، ورقم (٩٣) التي تحطمت في بنسلفانيا.

ويوجه الباحث التفاتنا إلى نمط التأخير في الإبلاغ عما يجرى وفي قيام الطائرات النفاثة المقاتلة من مطارها الحربى في أندروز. وتثير حالة الطائرة التي ضربت البنتاجون رقم ٧٧ دهشة مذهلة ، إذا كان من المعروف أن هذه الطائرة القادمة من (دالاس) في جنوبى الولايات المتحدة قد تعرضت لمشكلة أثناء طيرانها، لكنها استطاعت أن تغير خط سيرها، وأن تتجه نحو واشنطنون في رحلة استغرقت (٤٥) دقيقة، مارة فوق البيت الأبيض، لترطم بالبنتاجون. وخلال ذلك كله لم تتم أى محاولة للتعرض لها من أى سرب من الأسراب المقاتلة ، التي كانت رابضة كما سبقت الإشارة على بعد عشر أميال من المصير النهائى لتكل الطائرة وارتطامها بالبنتاجون. ويعلق الكاتب على ذلك النمط من التأخير في تحرك الطائرات وفشلها في الاعتراض بقوله (إن هذا السيناريو غير ممكن مهما شطح الخيال إلا إذا أقر المرء بأن ثمة مؤامرة، حتى لو لم يحدث أى شيء آخر خلال ذلك اليوم).

(٣) لم يُعَنَّ رئيس هيئة الأركان المشترك، أو وزير الدفاع، أو رئيس الولايات المتحدة بالتصدي لأحداث الهجوم بما ينبغي أن تواجه به من الإجراءات البروتوكولية المعروفة في حالات الطوارئ. وعلى سبيل المثال .. فإن نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة (الجنرال ريتشارد مايرز) صرح بعد الحادث بأنه رأى في أخبار التلفزيون أنه (استمع إلى تقرير عن طائرة ارتطمت بمبنى مركز التجارة العالمي، وحوالى الساعة ٨،٤٦، (وظن أنها طائرة صغيرة أو شيء من هذه القبيل). ولذلك استمر يواصل الاجتماع الذى كان يرأسه. بيد أنه بمجرد أنه أنهى اجتماعه علم بأن طائرة أخرى قد ضربت البنتاجون ويتساءل الباحث معلقاً (مسئولية من إبلاغ هذا الحدث الطارئ إلى رئيس هيئة الأركان؟!).

أما وزير الدفاع فقد كان في مكتبه يتعامل مع بعض الأوراق ، عندما ارتطمت طائرة الخطوط الجوية الأمريكية رقم ٧٧ الساعة ٩،٤٠ بمبنى البنتاجون. ويتساءل الأستاذ

الجامعي) كيف يمكن أن نتصور أن المركز الوطني للقيادة الحربية الموجود في مبنى البنتاجون نفسه ، والذي على اتصال بمواقع المراقبة لم يقيم بإبلاغ وزير الدفاع في البنتاجون منذ الساعة ٨,٤٦ نبأ الطائرات المهاجمة، وبخاصة تلك المتجهة نحو واشنطن من مطار دالاس؟! ثم لماذا توجه الوزير بعد سماعه بالأنباء إلى غرفة الحرب؟!)

وفيما يتعلق بموقف الرئيس بوش، فإن استجابته لما كان يجري تدل على أنه تجنب عامداً اتخاذ أى إجراء ، يتوقع من رئيس حريص على حماية المواطنين والممتلكات في بلاده. وقد كان الرئيس بوش أثناء تلك الهجمات في زيارة لمدرسة (سارسوتا) الابتدائية واستمر في زيارته ؛ إذ لم يبلغه الحرس السرى بالنبأ، وهو المنوط بإبلاغه عن كل شيء، إلا بعد ١٩ دقيقة من الهجوم الأول، أى بعد دقيقتين من الهجوم الثانى على مركز التجارة العالمي، حين همس رئيس الحرس (أندرو كارد) في أذنه بما جرى. لكن الرئيس لم يظهر أى اهتمام ملحوظ كما كان متوقعا إذا ما أراد أن يتخذ أى إجراء في هذا الموقف .. لقد كان منتظراً منه أن يغادر المدرسة ليعقد اجتماعاً طارئاً ، أو أن يتشاور مع أحد، أو يقوم بأى تدخل ليتأكد من أن قوات الطيران الحربى قد قامت بواجبها. لكنه لم يفعل شيئاً من هذا، و استمر في استكمال درس القراءة بالمدرسة، كأن أمراً خطيراً لم يحدث!!.

ويعلق الباحث موضعاً بأنه في حالات الطوارئ التى تمس أمن البلاد .. فإن التردد ولو لثوان قد يكلف هلاك آلاف الأرواح من البشر. ومن أجل ذلك تتخذ الحكومة شبكة متكاملة ضخمة من المخبرين والعلماء والمستشارين والأجهزة لضمان أن يحاط الرؤساء أول لا آخر من يحاط بتلك الأحداث الخطيرة الطارئة. ويخلص من ذلك إلى أن وكالة المخابرات المركزية ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية والرئيس وكل الشخصيات القيادية المحيطة به في البيت الأبيض، تتحمل المسؤولية في عدم فعل أى شيء في مواجهة كل تلك الأحداث ، التى تبين أن ثم تهديداً داهماً للأمن القومي. ويطرح الباحث سؤال: هل هذا ناتج عن ضعف في القدرات والإمكانات؟ ويقرر الباحث (إنى أعتقد أنه ليس كذلك).

(٤) كان على أجهزة المخابرات الأمريكية قبل ٩/١١ أن تمنع (١٩) إرهابيا من الدخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية لأسباب مخبرانية بحتة، ومن بينهم (١٢) شخصا ، كان لا بد من رفض إعطائهم سمات دخول ؛ إذ إن طلبات السمة التي تقدموا بها جاءت ببياناتها غير صحيحة وغير كاملة . وقد جرت العادة إثارة التشكك في طلبات الدخول لمن لا تشير بياناتهم إلى البلد أو المكان الذي يقصدونه أو إلى الهدف المحدد من مجيئهم. كذلك تعترض صعوبات عديدة منح سمة الدخول للشباب الذكور وغير المتزوجين وأولئك الذين ليس لهم مهنة أو عمل محدد. ثم إن عدداً من الخاطفين قد استنفد مدة إقامته الشرعية ، وليس لديه مبررات تستوجب بقاءه على الأرض الأمريكية .. ففي حالة (محمد عطا) الذي يقال إنه قائد مجموعة الخاطفين تشير المعلومات المتاحة عنه أنه كان مراقباً من مكتب التحقيقات الفيدرالية منذ عام ٢٠٠٠، ولكنه استطاع الدخول مرة ثالثة عام ٢٠٠١ بسمة سياحية .

(٥) يدور الدليل الخامس حول الكيفية التي استطاع بها كثير من أولئك الخاطفين الحصول على تصريح للتدريب على الطيران في الأجواء الأمريكية دون التحقيق من أغراض هذا التدريب ودوافعه. والواقع أن معظم هذه المجموعة قد بدأت تدريبها الأوّلي في مطارين بمدينة فينس بولاية فلوريدا ، وهما مطاران تحوم حولها الشبهات في مصداقيتهما، ومع ذلك تم تدريبهم بموافقة المخابرات الأمريكية. وأورد الباحث أسماء عدد من الخاطفين والمطارات المختلفة التي التحقوا بها فيما بعد ، في ولايات الاباما وتكساس وكاليفورنيا. ومع صحة هذه المعلومات الموثقة، نجد أنه بعد ثلاثة أيام من هجوم ٩/١١ يعلن مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية ، روبرت ميولر أنها معلومات لم يكن للمكتب علم بها وهي جميعها جديدة بالنسبة له .

(٦) ثم يتساءل الباحث عن الكيفية التي حصل بها الخاطفون على المواد المحظورة مثل آلة تمزيق الصناديق، وبخاخة الفلفل، والبنديقية صغيرة الحجم، والتي تمكنوا من اصطحابها على متن الطائرة. ومما يثير الاستغراب أنه في صبيحة ٩/١١، عندما تسلمت المجموعة الإرهابية المكونة من (١٩) فرداً، بطاقات صعود الطائرة ، تم توقيف (٩)

منهم وإعادة تفتيشهم تفتيشاً كثيفاً، لكنهم جميعاً سمح لهم في النهاية بمتابعة مهمتهم على متن الطائرة .

وفي هذه الحثيات الست أراد الأستاذ الجامعي أن يدلل على ما وقر في فكره، وما تجمع لديه من قرائن حول تواطؤ الإدارة الأمريكية وقيادتها في أحداث ٩/١١. وفي المقال الثاني سوف نتابع بقية الحثيات التي أوردها صاحب هذا البحث. وقد حرصنا أشد الحرص على أن يكون تلخيصنا لكل ما أورده من قرائن، وأن نترجم مضامينها الرئيسية ترجمة دقيقة - أو قل حرفياً - في بعض الحالات ، واضعين ما اقتبسناه بين هلالين لتكون أكثر وضوحاً من وضعها بين علامات التنصيص المعتادة.

(٧) في الفترة التي كانت أجهزة المخابرات قد تنبّهت إلى احتمال قيام أفراد من القاعدة بهجوم في داخل الولايات المتحدة، قامت إدارة بوش الأمريكية قبل أربعة أشهر من تاريخ ٩/١١ بالاتفاق على برنامج أطلق عليه (الفيزا السريعة) لتسهيل دخول السعوديين إلى الولايات المتحدة. وقد أعلن (مايك سبرنجمان) رئيس قسم القنصلية الأمريكية في جدة ورود ضغوط متكررة عليه من موظفي وزارة الخارجية في واشنطن لإصدار سمات دخول لأشخاص غير مؤهلين للحصول عليها. بيد أن شكواه من هذا الاستثناءات لم تجد لها أي صدى. وقد أشار في إحدى المقابلات التي أجرتها معه محطة (س . بي . س) بعد وقوع الهجوم بأن وكالة المخابرات المركزية كانت متواطئة في الهجوم على حدث ٩/١١.

(٨) لقد كان معظم الخاطفين من السعوديين، كما هي جنسية أسامة بن لادن، وقد تجمعت حولهم معلومات مخبرية تدل على أن بعض الهيئات السعودية تقدم دعماً مالياً للمنظمات الإرهابية. ويعقب على الباحث ذلك بأنه ما دام هدف الولايات المتحدة مكافحة الإرهاب، فلماذا تتجه عمليات الاستعداد للحرب إلى العراق، بدلاً من ملاحقة بن لادن حيث يوجد هو وجماعته.

(٩) يثار السؤال حول ما الذي أدى بمكتب التحقيقات الفيدرالي إلى إيقاف تحقیقاته في ١٠ أكتوبر ٢٠٠١ في قضية بن لادن ومسئوليته في أحداث ٩/١١، أي

بعد شهر من البدء بها؟ والحاصل إن ذلك المكتب قد اشتكى مراراً من التضيق والاختناق لدى محاولاته التحقيق في اتهامات بن لادن وتنظيم القاعدة. ويعزى إلى أحد المسؤولين عن المسائل القانونية قوله إلى أن الهيئة المكلفة بالتحقيق (قد أوحى لها بأن تفهم بأننا لسنا الآن في محاولة لحل جريمة من الجرائم) .

(١٠) لقد جرى اتهام أسامة بن لادن من قبل بعض المسؤولين بصفة غير رسمية بارتكاب ذلك العمل الإرهابي بعد يوم واحد من حدوثه ؛ أى بعد فترة زمنية قصيرة جداً ، لم يسمح مداها بإجراء أى تحقيقات تثبت ذلك الاتهام. والباحث يرى أن مثل هذا الاتهام أمراً مستحيلاً إذا لم يكن لدى الإدارة معلومات مسبقة بذلك. وهل يعقل ألا يكون لديها أى تحذير فى عملية من هذا النوع ؛ مما يصعب على أجهزة المخابرات الأمريكية أن تغيب عنها؟ وحتى لو تسرب لديها معلومات غير محدودة عن الهجوم، فإن أسئلة كثيرة يمكن أن تثار فى عدم الاحتياط والاستعداد لمواجهتها. ويؤكد الباحث أنه ليس من المنطقي، بل وواقعياً غير مستحيل، أن يحدث ذلك الهجوم إذا لم يكن بن لادن مشاركاً بالتآمر فيه، أو فى أحسن الحالات بأن الحكومة الأمريكية كانت على علم بما سيفعله، تاركة إياه عمداً وقصداً أن يفعله) .

ومن ناحية أخرى .. فإنه نتيجة لمعرفة الهجوم الأول الذى حدث فى الساعة ٨،٤٦، تم إخلاء البيت الأبيض فى الساعة ٩،٤٥ خشية الهجوم عليه ؛ مما يعنى أن إبلاغ خبر الهجوم قد جرى قبل ذلك. وإذا كانت صيحات الناس التى تعالت فى الشارع تكتف بضرورة الإمساك بأسامة بن لادن فى الساعة ٩،٣٥، فهذا يعنى أن الخبر قد أذيع فى الساعة ٩،٢٥ . أيضاً أن المحققين فى الحادث قد أجروا مهمتهم فى ٩،١٥ أى بعد (١٢) دقيقة من ضرب الطائرة الثانية للبرج الجنوبي من مبنى مركز التجارة العالمى الذى وقع فى الساعة ٩،٠٣ ، وهذا يعنى أيضاً أن التحقيقات قد تمت بإدانة بن لادن قبل أن تنتهى الهجمات على البنتاجون فى الساعة ٩،٤٠ وتحطم الطائرة الثالثة فى بنسلفينيا فى الساعة ١٠،١٠ .

ومع هذا التتابع الذى يبدو مؤسفاً يشير الباحث إلى أن الأهم من ذلك أنه (بعد أربع ساعات من بدء الهجمات قامت الإدارة بتحريك حملة دعائية مخططة سلفاً بمعونة

رسائل الإعلام المطيعة وغير الناقدة للزج باسم بن لادن وإدانتته في عقول الشعب الأمريكي) والواقع أنه منذ اليوم الأول للهجوم الإرهابي لم يظهر أى خيط من خيوط الأدلة التي تدين بن لادن . وحتى منتصف ديسمبر لم يكن هناك إلا ترديد متواصل لاسمه فحسب، وأن الاتهامات الرسمية التي ظهرت كانت مدعاة للازدراء والإشفاق.

ويتجلى ذلك فيما أعلنه من البيان الرسمي الذي تضمن (٩٦) نقطة تفصل الأسباب التي أدت إلى توجيه الاتهام ، منها (١٠) نقاط تشير إلى العلاقة بين بن لادن وحكومة طالبان في أفغانستان، ومنها (١٥) نقطة تبين العلاقة بين بن لادن والفلسفة العامة لتنظيم القاعدة الإرهابي. وهناك (٢٦) نقطة تحدد اتهامات ترتبط بمحاولات إرهابية سابقة (نيروبي..). بينما لا يعرض هذا البيان أى حقائق عن هجوم سبتمبر. وفي هذه الحملات الدعائية استخدمت وزارة الدفاع بعد أربع ساعات جزءاً من حوار نسب إلى بن لادن في محاولة لإدانتته، لكنها لم تقم بإذاعة الحوار كله، ولم تقدم ترجمة حرفية له باللغة الإنجليزية. ويتساءل الباحث ( لماذا كان من الضروري الاجترار بالكذب من أجل خلق حالة اتهام لأسامة بن لادن .. لكن الحقيقة هي التي توجه الاتهام لإدارة بوش؟).

(١١) من حيثيات التواطؤ ما هو معروف من تلك العلاقات المتشابكة بين وكالة الاستخبارات الباكستانية، وتنظيم القاعدة، ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، ثم بين الوكالة الباكستانية وأسماء بن لادن ومحور طالبان. هناك ما تقدمه باكستان من دعم للقاعدة، ثم أن وكالة الاستخبارات الباكستانية ظلت الآلية التي من خلالها تزود وكالة الاستخبارات المركزية دعمها غير المباشر للقاعدة. وقد استخدمت الحكومات الأمريكية المتعاقبة الوكالة الباكستانية كوسيط في هذا الدعم لكل من القاعدة وطالبان وأسماء بن لادن . ومن ثم فإنه دون هذا الدعم المؤسسى للوسيط الباكستاني ، لم يكن ممكناً أن تقوم حكومة طالبان في كابول. وفي المقابل فإنه دون الدعم المستمر لحكومة الولايات المتحدة ، فإنه لن يكون هناك جهاز قوى للاستخبارات الباكستانية.

ومن ثم فإن وكالة الاستخبارات الباكستانية تعتبر بطريقة غير مباشرة مرتبطة بأحداث سبتمبر. وقد أشارت بعض التقارير إلى أن المدير العام لتلك الوكالة (الجنرال

محمود أحمد) قد قام بتزويد رئيس مجموعة الخاطفين للطائرات التي قامت بالهجوم ١١ سبتمبر بما قيمته مائة ألف من الدولارات قبيل هجوم ٩/١١ . وعندما تم اكتشاف ذلك بعد الهجوم أرادت الحكومة الأمريكية أن تحميه وتحمي نفسها فدعت الجنرال للاستقالة من منصبه ، وبذلك أغلقت الطريق لأي محاولة للتحقيق وفيما يمكن أن ينجم عنها من ظهور كثير من الفضائح. ومن ثم فإن دعوة الحكومة الأمريكية لوكالة المخابرات الباكستانية للتعاون معها بعد أحداث ٩/١١ باعتبارها الداعمة والمخرضة لكل من بن لادن وطالبان، فضلاً عن مشاوراتها مع الجنرال قبل ذلك الهجوم بأسبوع، تشير قضية آيات التغطية والتمويه والتواطؤ في تلك الأحداث.

(١٢) أن الحكومة الأمريكية وبن لادن ليسا عدوين كما يدعيان، فالتعاون بينهما له تاريخ طويل، وهناك من الشواهد ما يدل على أن هذه العلاقة ما تزال قائمة. ومع أن هناك عديداً من الحثيات في بعض المواقف التي تشير إلى أن بن لادن له ضلع في أحداث ٩/١١ .. لكن المشكلة تكمن في أنها توجه الاتهام كذلك للإدارة الأمريكية ولو وكالة المخابرات المركزية، ولجورج بوش الأب، ولباكستان، ولبعض الدول العربية.

لذلك مما لا يرقى إليه أى شك ولا ينكره أى أحد ما كان قائماً من علاقات عمل بين بن لادن ووكالة المخابرات المركزية أثناء حقبة الثمانينيات. بيد أن الادعاء بأن هذه العلاقة قد انهارت منذ ذلك التاريخ إنما يمثل قصة كاذبة. ومما هو ثابت أيضاً وجود علاقة وثيقة بين كبار الأعضاء في إدارة بوش وبين أفراد عائلة بن لادن. وفيما تعرضه وسائل الإعلام من حكايات عن هذه العلاقات يتم تبريرها وتحريرها على أنها علاقة مقبولة ؛ لأن العائلة قد تبرأت من عميدها بن لادن نتيجة الأنشطة الإرهابية التي ينظمها ضد الولايات الأمريكية. (وهذا كذلك من الأكاذيب ؛ إذ إن هناك شواهد كثيرة تؤكد أن وكالة المخابرات المركزية لم تقطع علاقاتها بشبكة الإسلاميين المتطرفين. ثم أنه منذ نهاية الحرب الباردة لم تقتصر المخابرات السرية في العلاقات على ما كانت عليه آنذاك، بل إنها تزداد تدريجياً تعقيداً ودهاء ) .

(١٣) لماذا لم يقبض على بن لادن قبل أحداث الهجوم في ٩/١١، ولماذا لم يتم القبض عليه حتى الآن؟ سؤال مطروح لدى كثير من هيئات المجتمع الأمريكي، حيث كانت هناك فرص متعددة للقيام بذلك، ويبدو أنه لم يبذل جهد حقيقي في هذا الشأن، وهناك بعض الدول العربية التي تتعاون في أن يظل حرًا طليقًا. والواقع أنه كانت تتم لقاءات بينه وبين أعضاء وكالة المخابرات المركزية خلال الفترة الأخيرة قبل الهجوم حتى شهر يوليو ٢٠٠١، وأن فحصا لمحاولة الولايات المتحدة القبض عليه تظهر بجلاء ما كان يعطل استمرارها ويؤدي إلى توقفها بين الحين و الآخر. ويشار في هذا الصدد إلى أن (١١) فرداً من عائلة بن لادن قد أتيح لهم أن يستقلوا الطائرة من مطار بواشنطن [وهو المطار الذي بدأت منه طائرتان للمختطفين التوجه إلى أهدافها] ليرحلوا إلى الخارج، بعد أيام قليلة من عملية الهجوم. ويبقى السؤال لماذا لم يتم احتجازهم والتحقيق معهم لعلمهم ، يبدو ان بما يوضح شيئاً ذا دلالة في دوافع وتخطيط ذلك الهجوم الإرهابي ؟

(١٤) إن إيجاد ذريعة لشن الحروب كما تجلى في التواطؤ حيال أحداث ٩/١١ سوف يؤدي إلى اكتساب مزيد من القوة العارمة والأرباح الفاحشة نتيجة للعلاقات الاقتصادية بين أسامة بن لادن وكبار المسؤولين في إدارة بوش. ومن الثابت أن ثمة مشروعات تعاونية بين عائلة أسامة بن لادن وعائلة بوش ، من خلال الشركة الكبرى المعروفة باسم ( مجموعة كارلايل ) وهي من أكبر الشركات العالمية في مقاولات السلاح . ومما هو وارد في سجلات تلك الشركة استقطابها للرئيس الأسبق جورج بوش الأب كعضو رئيسي في معاملاتها الممتدة زمنًا طويلاً مع عائلة بن لادن. وقد جنت هذه الشركة العملاقة أرباحاً طائلة من اشتعال الحرب في أفغانستان وفي العراق، فضلاً عن أرباحها فيما أسماه الباحث (دورها في عسكرة السياسة الخارجية الأمريكية).

(١٥) لقد تكشف عن الأرباح المتولدة من هجوم ١١ سبتمبر في داخل السوق الأمريكية ما يشير بأصابعه إلى مغامرات المستويات العليا من رجال الأعمال ووكالة المخابرات المركزية. وقد دأبت أجهزة المخابرات على إجراء تحليل دوري للمعاملات المالية لكل نشاط مريب يدعو إلى الشك .

وفى هذا الصدد تبين قبل ثلاثة أيام من الهجمات خلال التعامل فى السوق المالى للبورصة بأن أسهم شركة خطوط الطيران المتحدة، وهى الشركة التى تم اختطاف طائرتها للهجوم على نيويورك وواشنطن، قد تم بيعها بأسعار متدنية إلى أقصى الحدود إلى جماعات المستثمرين، وقد كان من أكبر المستفيدين من ذلك مدير المخابرات المركزية (كرونجارد) أما أسماء المستثمرين الآخرين فما تزال فى طى الكتمان، وهناك ما قيمته ٥ ملايين دولار من الأرباح لم يطالب بها أحد، وما تزال فى حساب سوق التعامل فى شيكاغو. ثم إنَّه فى اليوم السابق للهجوم مباشرة لم تجر أية معاملات فى أسهم أى شركة من شركات الطيران فى سوق الأوراق المالية نفسها فى شيكاغو.

كذلك شهد ذلك السوق نشاطاً غير عادى قبيل الهجوم بأيام بالنسبة للشركات التى تشغل مكاتب فى مركز التجارة العالمى، ومن بين هذه الشركات الكبرى شركة (مورجان ستانلى دين ووتر) وشركة (ميرل لينش). ولا شك فى أن هذا النشاط الضخم غير المسبوق يشير إلى أن المستثمرين فى تلك المعاملات كانت لديهم توقعات بأن كارثة ستحدث فى منتصف سبتمبر، تتصل بالخطوط الجوية الأمريكية وخطوط طيران الشركة المتحدة، والمكاتب فى الجناحين الجنوبى والشمالى لمركز التجارة العالمى. ومنذ تلك الأيام التى سبقت الهجوم، كما يقرر الباحث، (أطبقت لجنة الأوراق المالية وأسعار العملة شفاهها على نتائج بحوثها المالية، مع أن كشف ذلك المستور سوف يبين لنا أولئك المستثمرين الذين انتهزوا تلك الفرصة) ويتساءل الباحث (لماذا لم يتم الإعلان عن أى شيء فى هذا الموضوع حتى الآن؟) .

(١٦) لقد تم إبلاغ عدد من الشخصيات بعدم التفكير فى السفر بالطائرة صبيحة يوم ٩/١١. كذلك أفادت مجلة نيوزويك بأنه فى يوم ٩/١٠ أى قبل الهجوم بيوم واحد بأن مجموعة من كبار موظفى البنتاجون .. قامت فجأة بإلغاء خطة سفرها المقررة بالطائرة فى ذلك اليوم، وكان من الواضح أن مرد ذلك إلى اعتبارات أمنية. ومن هذا القبيل تلك المكالمات الهاتفية التى تلقاها عمدة سان فرنسيسكو (ويلى براون) قبل سفره بثمان ساعات من الهجوم، محذرة إياه من السفر بالطائرة. وجرى ذلك فى حالة

(سلمان رشدى)، المحاط بحماية سكوتلانديارد على مدى ٢٤ ساعة، حين منع من السفر بالطائرة. ويقال فى بحوث أخرى إن مئات من اليهود العاملين فى مركز التجارة العالمية لم يذهبوا إلى مكاتبهم فى ذلك اليوم ، وهنا يتساءل الباحث أيضاً (لماذا لم تقدم تلك التحذيرات نفسها إلى أولئك المسافرين على متن الطائرات التجارية المختطفة، مما أدى إلى مقتل ٢٦٦ شخصاً من ركابها؟)

(١٧) هناك سند معقول للشكوك التى تثار حول أن الهجوم على أفغانستان كان مخططاً قبل ٩/١١. ولما كان من الضرورى وجود مسوغ يبرر الحرب، فإن ما كشف عنه الصحفى (باتريك مارتن) من أن (الحرب ضد أفغانستان كان مخططاً لبدئها فى أكتوبر ٢٠٠١ منذ سنة على الأقل، وهى فى السياق العام للاستراتيجية الأمريكية) مرتبطة بالاستراتيجية الإقليمية للمصالح الاقتصادية للولايات المتحدة، وهو توجه يستمد جذوره من تخطيط استراتيجى أقدم وأشمل يمتد إلى أربع سنوات سابقة.. وهذا التخطيط بدوره نتيجة لجهود استغرقت عقداً من الزمان فى التخطيط الاستراتيجى الإقليمى، وكل ما كانت تتطلبه هذه الخطط وجود المبرر للضغط على زناد الحرب، والذى قد وجد تجسيده فى الأحداث المأسوية بتاريخ ٩/١١).

(١٨) لقد جرت أحداث الهجوم فى وقت مناسب تماماً لإدارة بوش، والبنجاح، ووكالة المخابرات المركزية، ومكتب التحقيقات الفيدرالى، وصناعة الأسلحة، وصناعة النفط ؛ إذ استفادت كلها استفادة كبرى من هذه المأساة.

ويتذكر الباحث فى محاولة الإجابة عن المستفيد، مقولة الفيلسوف الاجتماعى الكندى إذ يرى (أن علينا أن نبدأ فى هذا الشأن بالقاعدة القانونية التى تطرح السؤال "من أكثر المتفعين من ارتكاب الجريمة"؟ والإجابة تشير هنا بوضوح فى اتجاه إدارة بوش، والواقع أنه كلما ازدادت معرفتنا بالتشابكات والتجاوزات الكاسحة للشروط الأمنية فى مختلف الهيئات المعنية بها، ازدادت المؤشرات التى تشير بأن المستفيدين هم قيادات الإدارة الأمريكية).

(١٩) ومما لا ينبغي إغفاله أن كلاً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي سابقاً، مسئول عن ظهور التطرف الديني والإرهاب والحرب الأهلية في أفغانستان منذ الثمانينيات . وتقع المسؤولية المباشرة على الولايات المتحدة بسبب تنميتها لأيدولوجية مشوهة في معنى الجهاد، والتي أشعلت - بفعل ما قدمته من سلاح وتدريب - نيران الحرب والإرهاب داخل أفغانستان بعد انسحاب القوات السوفيتية.

(٢٠) وأخيراً ينبغي التذكير بأن هناك سوابق لهذا التواطؤ "والفكركة" في المعلومات والوقائع. وهذا رغم الادعاء بأن وجود دولة ما يجرى التآمر عليها من قبل مواطنيها وبخاصة من قيادات إدارتها، أمر لا يخضع للعقل أو التصديق. لكننا في الوقت ذاته علينا أن نتذكر أن الهجمات الإرهابية على المواطنين من قبل وكالة المخابرات المركزية مسألة مسطورة في الوثائق العامة. ومن هذا القبيل وثيقة (عملية نورثودز) التي كشفت، بعد أن أزيح عنها طابع السرية، أنه في عام ١٩٦٢ خططت وكالة المخابرات المركزية للقيام بهجمات إرهابية ضد مواطنيها من أجل أن تتهم كوبا بذلك مما يبرر شن الحرب عليها. وإذا كانت تلك الخطط لم يتم تنفيذها .. فإنه جرى اعتمادها والموافقة عليها من قبل جميع رؤساء الأركان في القوات المشتركة. وكان من بين خياراتها اغتيال عدد من الكوبيين الهاربين إلى أمريكا، أو قتل عدد من الجنود الأمريكيين، أو إغراق بعض السفن، أو إجراء محاكاة بإسقاط طائرات.

إن زلزال ٩/١١ له سوابق من حيث الخديعة في سياسة الولايات المتحدة، وإن كان الأول من نوعه في هجوم خارجي على أرضها. (ومرد ذلك إلى أن التواطؤ والخداع في أحداث سبتمبر مبنى على تقليد مهيب كتيب يعود إلى أيام الإمبراطورية الرومانية. ولقد جرى خداع الديمقراطية في أمريكا على يد الرئيس روزفلت في تفجير الأسطول الأمريكي في (بيرل هاربور ، والذي يُعتقد أن الرئيس كان على علم مسبق به) ولم يسع إلى الحيلولة دونه حتى يكون ذريعة لاستمرار الحرب في الشرق الأقصى وعلى اليابان أثناء الحرب العالمية الثانية.

وختاماً، يؤكد لنا الأستاذ الجامعي أنّه من حقنا أن نستنتج ما نشاء مما أورده من أدلة، تصديقاً أو شكاً أو إنكاراً. لكنه مع ذلك يؤكد أنّه لو أن كثيراً من هيئات الحكومة الأمريكية قد قامت بمسئولياتها وأدوارها المنوطة بها، لكان من الميسور منع حدوث مأساة سبتمبر. ويضيف إلى ذلك قوله بأنه لو تم إجراء تحقيق جاد في تلك الأحداث .. فإنه كان من المستطاع تفادي الحرب في أفغانستان والعراق.

ولا يسعنا في هذا الصدد أن نحول دون ما يقفز إلى الذاكرة من تداعٍ للأحداث، متذكرين تلك الحقائق المرتبطة بمبررات الحرب على العراق من اتهام النظام العراقي بامتلاك أسلحة الدمار الشامل التي يمكن أن يطلقها بعد ٤٥ ثانية من مواجهته لأى حرب. ونسترجع كذلك أكذوبة تلك الحاويات التي عرضها وزير الخارجية الأمريكي مدلاً بها تنقل الأسلحة المحظورة، هذا فضلاً عن أسطورة تلك الكعكة الصفراء من مادة البلوتونيوم النووية التي اشتريتها العراق من النيجر ، والتي أوردها الرئيس بوش في خطابه الشهير (حالة الأمة) مما ثبت بطلانها ، وعرضته وعرضت أجهزة مخابراته للنقد الشديد في داخل أمريكا وخارجها.

ومع ذلك ما يزال البحث جارياً عن أسلحة الدمار الشامل والتي أعلن بلكنس رئيس مفتشى وكالة الطاقة الذرية في العراق أخيراً أنها قد دمرت منذ عشر سنوات. ورغم ذلك فإن وزير الخارجية الأمريكي يعتقد بوجودها، ويأمل مع الوقت أن يتم العثور عليها ، عندما يجري التنقيب عنها تحت سطح الأرض.

ويختتم الأستاذ الأمريكي بحثه باقتباس من كتاب أمريكي ، يعالج الأسباب التي أدت إلى الهجوم على أمريكا في ٩/١١ إذ يقول مؤلفه (إن الإدارة الأمريكية في شنها للحرب قد تنكرت للدستور، وأن الكونجرس قد تنازل عن سلطته في اتخاذ قرارات الحرب فيما لا يقل عن مائتين من المناسبات منذ عام ١٩٤٥، حسبما ورد في تقرير لاتحاد العلماء الأمريكيين).

ويتابع في خاتمته اقتباساً من مؤلف أمريكي آخر يقرر استنكاره لما تقوم به الولايات المتحدة في سياستها الخارجية، إذ تصرخ عباراته بأنه (ليس هناك مجتمع يرضى، إذا ما علم تماماً، بأنه مسئول عن قتل ما بين ١٢ إلى ١٥ مليون من البشر منذ الحرب العالمية الثانية، وبأنه متسبب كذلك في موت مئات الملايين من السكان من جراء انهيار اقتصاديات بلادهم ... إننا نتحدث بملء أفواهنا عن السلام والحرية والعدل والحقوق وحكم الأغلبية، وفي طول العالم وعرضه، تقوم عمليات الإرهاب التي تساندها بعض الحكومات لتطيح بالأنظمة الديمقراطية، ولتحل محلها حكومات دكتاتورية تحول دون السلام والحرية والعدل والحقوق وحكم الأغلبية .. إن كل أجهزة المخابرات كانت تعمل وما تزال من أجل زعزعة الدول غير النامية ؛ لضمان تبعيتها واستمرار تدفق موارد ثرواتها الطبيعية إلى الدول القوية).

## أما بعد ..

لقد اقتصرنا من جانبي على عملية التلخيص لما ورد في دراسة ذلك الأستاذ الجامعي الأمريكي، وأحببت أن أعرضها إلى جانب ما قد بدأ يظهر من كتب وتقارير حول أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وشأن في ذلك شأن صاحب الدراسة فيما يتعلق بموقف القارئ واستنتاجاته من مجمل الحثيات والأدلة التي ساقها ، وفي جميع الأحوال أنها دراسة تستحق التأمل من أجل الحقيقة والتاريخ .

## (٤) قالوا عن الحرب وأهوالها وتداعياتها

### مقولات عامة :

تشير أنباء الحرب خليطاً من المشاعر الإنسانية المتناقضة والمتلاطمة حسب سياقها بين المعتدى والمعتدى عليه ، بين الذئب والحمل ، بين الظالم والمظلوم ، بين المحتلين للأرض وأصحابها الشرعيين ، بين الساعيين إلى الهيمنة على موارد الشعوب ، وأولئك الذين يعيشون على خيراتها .

وبين هؤلاء وهؤلاء تختلط المشاعر في الحرب بين آيات المجد والنصر والكبرياء من طرف ، وآيات الفناء والرعب والفداء والاستشهاد والدم المسفوك من الطرف الآخر .

والواقع أنه من الصعب أن تحيط الكلمات بعمق مختلف المشاعر التي تضطرب بها ساحات الحرب وما تشيعه من أهوال ومصائب ، سواء خلال ما يجري أثناءها من معارك أو ما يترتب عليها من تداعيات الدمار والخراب والعار وفيما يلي سوف نورد بعض تلك المقولات والرؤى التاريخية التي اقتطفناها من شبكة الإنترنت ، والتي حاول أصحابها أن يعبروا عن تلك المشاعر التي تنطلق من آله الحرب وأهوالها ومقاصدها ، ومنها :

- (هناك كثير من الشباب اليوم ينظرون إلى الحرب على أنها المجد كله ، لكنني أقول لكم أيها الشباب ، إنها الجحيم كله ، وعليكم أن تحملوا إنذار صوتي إلى الأجيال القادمة. إنني أنظر إلى الحرب على أنها الهول والرعب كله) [من خطاب ولييم شرممان ، أحد جنرالات الحرب الأهلية الأمريكية عام ١٨٨٠] .

- (كل الحروب تبدو مقبولة خلال أيامها الثلاثين الأولى فحسب) (مقولة للمؤرخ الأمريكي ، آرثر شسينجر ، عام ١٩١٧) .

- (ليست الحرب إلا استمراراً لمجريات السياسة مع خليط من الوسائل الأخرى)  
(الجنرال البروسى كارل مارى فون كلاوشتس ، عام ١٨٣٣ ) .
- (لعله مما يحمد للحرب أنها رهيبة إلى أقصى الحدود ، ولولا ذلك لأصبحنا مولعين بها) (عبارة قالها الجنرال الأمريكى روبرت لى إلى جنرال آخر فى أعقاب إحدى معارك الحرب الأهلية الأمريكية ، عام ١٨٨٢ ) .
- (لقد أدخل التلفزيون ما تحمله الحرب من مشاهد وحشية إلى حجرة الاستقبال فى المنزل. لقد جرت الهزيمة فى حرب فيتنام من داخل حجرات الاستقبال الأمريكية، وليس فى ساحات القتال فى فيتنام) (عالم الاجتماع الكندى مارشال مكلوهن عام ١٩٧٥ ) .
- (إن الحرب التى تعتبر أمراً لا مناص منه أو حتى أنها أمر ممكن ، ومن ثم يتم الإعداد لها ، تنبئ بأن هناك احتمالاً كبيراً فى وقوعها) (الدبلوماسى والمفكر الأمريكى جورج كنان عام ١٩٧٧ ) .
- (الحرب هى الرأسمالية وقد خلعت قفازها) (الكاتب الروائى البريطانى توم ستوبارد عام ١٩٧٤ ) .
- (إنه إذا ما لم يتم إنجاز أى فعل فى هذا العالم حتى يستعد الناس لتنفيذه عن طريق أن يقتل بعضهم بعضاً) (الكاتب الإيرلندى الساخر المشهور برناردشو عام ١٩١٥ ) .
- (إنك لا تستطيع أن تكسب حرباً ، كما أنك لا تستطيع أن تنتصر على زلزال)  
(قانونية أمريكية جينت برانكن ، عام ١٩٧٠ ) .
- (إن العصابات المتمردة تقوم بحرب البراغيث ، بينما يعانى عدوها المسلح من قرصها كما تفعل الكلاب. هناك الكثير مما يمكن الدفاع عنه ، لكن العصابات قليلة العدد، تتواجد فى كل مكان ، وهى العدو سريع الحركة من الصعب أن تمسك به) (للكاتب روبرت تابى ، مؤلف كتاب "حرب البراغيث" عام ١٩٦٥ ) .
- (الدم وحدة هو المحرك لعجلة التاريخ) (زعيم الفاشية ، الإيطالى بنيتو موسوليني ، ١٩٤٠ ) .

## مجاملة الأمم المتحدة لخطاب الحرب !!

وما أن انتهينا من ترجمة تلك الأقوال عن الحرب ومخاطرها وأهوالها حتى يفاجئنا الإنترنت بأمر عجيب في صدد استعداد مبنى الأمم المتحدة لخطاب كولن باول الذى ألقاه فى ٥ فبراير الحالى. وخلاصة الانحياز والمجاملة أنه توجد فى مدخل مجلس الأمن منذ منتصف الثمانينات نسخة من لوحة الفنان العظيم بيكاسو معروفة باسم جورينيكيا Guerenica. وقد رسم بيكاسو هذه الصورة تجسيدا لذكرى جريمة اغتيال القنابل الألمانية الإيطالية التى دكت إحدى مدن الباسك الإسبانية ، وأبادت حوالى (٥٠٠٠) من سكانها فى أبريل عام ١٩٣٧ أثناء الحرب الأهلية الإسبانية ، أيام حكم الدكتاتور فرانكو.

وتعتبر اللوحة الأصلية من بين أروع اللوحات فى مجال الفن الحديث. لكن يبدو أن مضمونها الذى تصرخ رموزه بأهوال ما تحدثه الحرب من جرائم الطعنة، قد بدأ لموظفى الأمم المتحدة أنه غير ملائم لمناسبته إلقاء كولن باول لخطابه عن مبررات الضربة العسكرية للعراق. لذلك رأوا أنه من قبيل الدبلوماسية يصبح من غير اللائق وضع الصورة فى خلفية قاعة مجلس الأمن فى هذه المناسبة. ومن ثم قاموا بتغطيتها بستارة زرقاء اللون ؛ حتى لا يحدث ذلك التناقض والتصادم بين ما يقوله بأول عن الحرب مع العراق ، وما تحكيه هذه الصورة التى تمثل أعنف صور الاحتجاج فى القرن العشرين ضد وحشية الحرب ، وفى أروع تمثيل حزين لها بالألوان : الأسود والرمادى والأبيض بريشة بيكاسو العظيم .

ومن غرائب الأحداث إن هذه اللوحة التى انتهى بها المطاف إلى أحد متاحف الولايات المتحدة ، التى قد استخدمت أثناء الحرب العالمية الثانية لجمع التبرعات لمساعدة المتضررين من الحرب الأهلية الإسبانية . كذلك دخلت اللوحة فى غمار التناقضات السياسية فى حرب فيتنام ؛ إذ طالب إذ ذاك (٤٠٠) من الفنانين بإعادة اللوحة إلى بيكاسو حتى تضع الحرب أوزارها . وها هى اللوحة التى أهداها نلسون روكفلر للأمم المتحدة عام ١٩٨٥ رمزا لوحشية الحروب ، توظف لأغراض سياسية . ومن من ؟ من موظفى الأمم

المتحدة التي أنشئت منذ عام ١٩٤٥ لتدعم وتحافظ على السلام والأمن في ربوع هذا الكوكب . ولا عجب أن يتساءل المرء في أى عالم نعيش ؟ ويبدو أننا نعيش اليوم في عالم الولايات المتحدة ، التي غدت الأمم المتحدة من صنائعها وسدنتها !!

## موقف المثقفين الأمريكيين :

بتاريخ ٢٥/٣/٢٠٠٣ أصدر هذا الإعلان ووقع عليه أكثر من ٥٥ ألفاً من الأمريكيين من المفكرين وأساتذة الجامعات وأعضاء الكونجرس في الولايات والعلماء ورجال الدين والأطباء والمحامين ورجال المال والاقتصاد ، ومنظمات حقوق الإنسان والهيئات النسائية والأدبية ، ومختلف الأعراق والديانات . وفي هذا الإعلان ، يؤكدون بوحى من ضمائرهم ضرورة التصدى بالاحتجاج والفعل للحرب غير الشرعية وغير الأخلاقية وغير المبررة التي تقوم بها الحكومة الأمريكية لغزو العراق ، وعلى تداعياتها في داخل المجتمع الأمريكى ، وفي العالم أجمع .

وإليكم نص هذا الإعلان الذى كانت تسميته ما تصدر هذا المقال :

حتى لا يقال إن شعب الولايات المتحدة لم يحرك ساكناً، عندما أعلنت حكومته حرباً لا حدود لها ، وأسست إجراءات فاحشة جديدة للقهر .. فإن الموقعين على هذا الإعلان يناشدون شعب الولايات المتحدة العمل على التصدى للنهج والتوجهات فيما تسير فيه سياستها العامة منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ والتي تمثل مخاطر جسيمة لشعوب العالم .

إننا نعتقد أن لكل الشعوب والأمم الحق في تقرير مصيرها ، متحرراً من الضغوط العسكرية للدول الكبرى ، ونعتقد أن كل الأشخاص الذين تعتقلهم أو تضطهدهم حكومة الولايات المتحدة ينبغي أن يتاح لهم التعامل من خلال الإجراءات القانونية المتبعة لمقاضاتهم . كذلك نعتقد بأن التساؤل والنقد والاختلاف في رأى قيم جديدة بالتقدير والحماية ، ندرك أن مثل هذه القيم والحقوق تظل دائماً موضعاً للنضال يستحق أن يدافع عنها .

ونعتقد أننا كشعب يحركه الضمير .. علينا أن نتحمل المسؤولية إزاء ما تقوم به حكوماته ، ومن ثم فعلينا أولاً وقبل كل شيء أن نعارض انتهاك صور العدالة التي تتم

باسمنا. لذلك ندعو جميع الأمريكيين إلى مقاومة القهر والحرب التي تشيعها إدارة بوش في هذا العالم دون مسئولية . إن هذه الحرب غير عادلة وغير أخلاقية وغير شرعية ، وقد اخترنا أن ننضم إلى الصالح المشترك مع شعوب العالم .

لقد شهدنا كذلك الأحداث المفجعة التي هزت كياننا في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، وتملكنا الحزن لما أصاب آلاف الضحايا الأبرياء ، واضطربت عقولنا من مشاهد تلك المذبحة البشرية . وحتى في ذلك الحين تذكرنا المشاهد الماثلة في بغداد ، وبمنا ستي ، ومعها مشاهد عقد مضى في فيتنام . وبذلك شاركنا ملايين الأمريكيين في تسأؤلهم المكروب عن السبب الذي يؤدي إلى مثل هذه الوقائع .

وما أن أخذ شعورنا يتصاعد بالحزن لأحداث سبتمبر ، إلا وتفاجئنا القيادات العليا لوطننا بإطلاق إعلانها مفعماً بروح الانتقام . وصاغت لتلك الروح شعاراً ساذجاً مفاده " مع الخير وضد الشر " ، والتقطته وسائل الإعلام بالأسلوب الملائم والمهدد . وقد بعثت لنا تلك الوسائل برسالة فحواها أن مجرد التسأؤل عن مبررات ما تقوم به القيادات إنما يقع في دائرة الخيانة ، وأنه ليس هناك مجال للرأى والرأى الآخر في هذا الشأن لأن القضية في جوهرها لا تحتل أى تسأولات سياسية أو أخلاقية . وإذا كان لها من إجابة فهي أنه سوف تكون حرباً في الخارج وكبتاً في الداخل .

وباسمنا فرضت الحكومة جملة من مظاهر العنف في المجتمع ، ومنها تحذير المتحدث باسم الرئيس بأن " على الناس أن يراقبوا ماذا يقولون " كذلك يجرى تشويه آراء المخالفين من الفنانين والمثقفين وأساتذة الجامعات ، ويتم الهجوم عليها وعدم نشرها . ثم إن ما يسمى بقانون المواطن (باتريوت أكت) وغيره من عديد الإجراءات المماثلة على مستوى الولاية ، تمنح الشرطة صلاحيات جديدة هائلة للتفتيش والقبض ، تشرف عليها إذا كان ثمة إشراف وتعامل معها محاكم سرية وإجراءات سرية .

وباسمنا اغتصبت السلطة التنفيذية أدوار ووظائف الفروع الأخرى للحكومة . ومن خلال الأوامر التنفيذية تعقد المحاكم العسكرية ، التي لا تعبأ كثيراً بالتدقيق في الشواهد والقرائن ، وأحكامها غير قابلة للاستئناف في المحاكم العادية . وهكذا تدان جماعات بأنها (إرهابية) بمجرد جرة قلم من الرئاسة .

علينا أن نأخذ بجدية ما يتحدث به كبار رجال الدولة، عندما يشيرون في الخارج إلى حرب قد تمتد عقداً من الزمان ، وفي الداخل عندما يعلنون عن قيام نظام جديد ..  
إننا نواجه بصراحة نظاماً إمبريالياً جديداً في التعامل مع العالم ، كما نواجه سياسة داخلية تصنع وتزييف عوامل لإثارة الخوف وتقلص الحقوق .

إن أحداث الأشهر القليلة الماضية في مسارها المميت تفرض علينا أن نفهمها على حقيقتها كما هي ، وأن نتصدى لمقاومتها . وتدلنا دروس التاريخ على أن أولئك الذين ينتظرون وقوع الأحداث يشعرون بعدها أنهم تأخروا كثيراً في مواجهتها .

لقد أعلن الرئيس بوش بأنكم " إما أن تكونوا معنا أو تكونوا ضدنا " . ومن ثم فإن جوانبنا أننا لن ندعك أيها السيد الرئيس تتحدث باسم جميع أفراد الشعب الأمريكي . ولن نتنازل عن حقنا في التساؤل ، ولن تستسلم ضمائرنا في مقابل وعد أجوف بالسلامة ، ونقول (ليس باسمنا) لأننا نرفض أن نكون فريقاً مع دعاة الحروب ، كما نرفض أى تفكير يوحى بأن الحرب تدار باسمنا، أو بحجة رعاية مصالحنا . إننا نمد أيدينا إلى أولئك الذين يعانون من هذه السياسات في أرجاء العالم ، وسوف نعلن تضامننا معهم بالكلمة وبالفعل .

نحن الموقعين على هذا الإعلان ندعو الأمريكيين جميعاً إلى الانضمام معنا لنقف في وجه هذا الحدث . وإننا نحى وندعم التساؤل والاحتجاج الذى يجرى في العالم اليوم، مع إدراكنا بالحاجة إلى أكثر من ذلك بكثير لإيقاف هذه المأساة . وإننا نستلهم في هذا الصدد ، موقف أولئك الجنود الإسرائيليين الذين رفضوا الانضمام إلى آلة الحرب ضد الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة ، مع ما يمكن أن يعرضهم لمخاطر شخصية ، وكان نداؤهم " لا بد أن يكون لهذا حدود " .

## التداعيات الأسطورية لأحداث ١١ سبتمبر

في مقدورنا أن نقدم تفسيرات عقلانية لما نشهده ونعايشه من أحداث حياتنا اليومية ، سواء جرت على مشاكلها وأنماطها المألوفة ، أو تعرضت لبعض التغير أو التطور

المتوقع حسب تقديراتنا أو توقعاتنا . بيد أنه قد تحدث أحياناً أمور مفاجئة ومعالم صادقة معاً في نفس الوقت أو في فترات متقاربة ، فيهتز العقل حيرة وارتياباً في تفسيرها ، ويتساءل ملتهباً في شكوكه هل هي مصادفة ؟ لكن العقل لا يركن إلى اعتبار أن وجود الظواهر الكونية مسألة عشوائية ، أو مجرد صدفة ، أحدثت التتابع والتشابه في تلك الوقائع ؛ فذلك في تقديره إنما يعنى أننا نفقد القدرة على التحكم في مسيرة حياتنا .

ومن المعلوم أنه ليس ثمة ما يحدث صدفة من منظور الفكر الديني ، فالأمر والأحداث محكومة بالإرادة الإلهية من خلال السعى الإنساني ، وفي المفهوم العلمي والرياضي هناك الأسباب والعوامل الفاعلة والمؤدية في ترابطها إلى حدوث ما يحدث من وقائع أو صدمات، قد تكون بفعل الطبيعة أو بفعل التآمر. وتفسير الأحداث في أى إطار مرجعي من تلك الإطارات ، يدخل في السياق المنطقي ، ويجعله أكثر تحملاً وأقل رعباً ؛ خاصة إذا ما كان وقعه عنيفاً وشاملاً. ولعله في فترات الاضطراب والهلع يسعى الناس إلى إيجاد ترابطات وعلاقات بين أشياء ليس بينها أى علاقة منطقية أو سببية على الإطلاق ، مفضلين ذلك - بوعى أو بلا وعى - على أن يتركوا هذا الحدث يمر على اعتبار أن مثل هذه الأمور قد تحدث عشوائياً ، ولا حيلة لنا إزاءها .

والواقع أن تصورنا لحدوث بعض الأمور لا يعنى بالضرورة أنها تحدث فعلاً ، فللعقل خداع كما للبصر خداع ، وفي الوقت ذاته .. فإن تصور حدوث أمر ما غير مسبوق على الإطلاق لا يعنى أنه لا يمكن البتة حدوثه في المستقبل ، ففي عالم الاحتمالات ليس هناك سبع مستحيلات . وفي جميع الأحوال فإن الإنسان - كما يقال - كائن يبحث عن التنميط في مدركاته العقلية ، وبخاصة في فترات الأحداث غير المتوقعة : مرعبة كانت أو مبهجة . وفي هذا السعى للتنميط يسعى المخ إلى ملء الفراغات بين العوامل لاستكمال صورة النمط ، التي لا تتوافر لها سوى عدد محدود من المعلومات . وقد ينجم ذلك عن خداع بصرى أو عن نوع من البصيرة أو التخيل في نسج المعلومات مع بعضها في نموذج محدد المعالم ، وهذا ما تؤكد في علم النفس نظرية المعرفة الكلية (الجشالت) في فهم بعض الظواهر والمدركات العقلية .

ويسوقنا إلى هذه ما يجرى من أحداث رهيبة غير متوقعة في حياة الشعوب، وما يرتبط بها من استجابات وتفسيرات متنوعة، تمتد من طرف العقلانية وتقدير العوامل الموضوعية إلى طرف التفسيرات الغيبية أو الأسطورية. ويعيننا هنا ما حدث من تفسيرات ارتبطت بالتأمر، وما تضمنه سياق المصادفات الرقمية في وقائع الهجوم على مركز التجارة الدولي في نيويورك ومبنى البنتاجون في واشنطن.

وفي مقالة لصحيفة نيويورك تايمز بعنوان (احتمالات ذلك) ٢٠٠٢/٨/١١ والتي اعتمدت عليها في تحرير هذه السطور تشير الكاتبة (لزلى بلكن) إلى نوع من التفكير المرتبط بالعالم السحري الأسطوري للأرقام Innumerology، كما هو الحال في مجال التنجيم Astrology في علم الأفلاك. وقد استطاعت تلك الرؤية الرقمية إيجاد أنواع من التماثل والتتابع في كثير من رموز ذلك الحدث الرهيب. ومن المعلوم أن للصدمات المروعة في تاريخ البشر مظاهر متعددة في تغييب العقل، والبحث عن آليات أخرى من التفكير للخروج من نفق الصدمة وحالك ظلمته. ولمثل تلك الصور من التفكير الأسطوري مشاهد في تاريخنا البعيد والقريب، لا يتسع المجال لعرض بعضها هنا.

والفكر الأسطوري الذي طرحته تداعيات وقائع برجى مبنى التجارة الدولي، ومبنى البنتاجون وهي التي يشار إليها عادةً بتاريخ ٩-١١ على طريقة الكتابة الأمريكية للتاريخ، حيث يسبق تاريخ الشهر تاريخ اليوم، وهي أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ والتي حال عليها الحول منذ مأساتها.

والمفتاح الأسطوري لهذا التاريخ، كما يوضح مقال التايمز، هو اليوم الذي وقعت فيه الكارثة، ويتجسد في مكنون مصادفات الرقم (١١) ويمكن تفسير ذلك من خلال عدد من التكوينات الأسطورية للأرقام المكونة أو المرتبطة بالحدث. ومنها: جمع رقم الشهر ٩ إلى آحاد رقم اليوم ١، وعشراته ١ أيضاً فيكون الناتج ٩ + ١ + ١ = ١١. وكذلك ما أثير حول رقم رحلة الطائرة التي بدأت بالهجوم على البرجين وهي الرحلة رقم (١١)، وكان على متنها حين أقلعت ٩٢ راكباً، إذاً (٩ + ٢) = ١١. ثم إن يوم ١١ سبتمبر هو اليوم ٢٥٤ من أيام السنة، وهذا العدد إذا ما جمع بالطريقة السابقة كان (٢ + ٤ + ٥) = ١١.

أضف إلى ذلك أن هناك (١١) حرفاً في كلمة (أفغانستان) بالحروف اللاتينية (Afghanistan) وكذلك يتألف كل من الأسماء التالية من ١١ حرفاً ، وهي مدينة نيويورك (New York City) ، واسم (البتاجون The Pentagon) وكذلك اسم (جورج دبليو بوش George W. Bush) ، ثم إن منظر برجى التجارة العالمى حيث يظهران فى تقابلهما هو على شكل رقم (١١) .

وفى متابعة لنمط الأرقام المتصل الذى لا وجود له فى الواقع ، وإنما هو من صناعة العقل يدخل الفكر الأسطورى المتمثل فيما توحى به الأرقام من مؤامرة إلى أرقام رحلات الطائرات الثلاث التى قامت بذلك الهجوم، وهى تتابع تسلسل الأعداد بعد رقم (١١) . فرقم رحلة الطائرة التى تحطمت فوق أحد الحقول فى ولاية بنسلفانيا هو ٩٣ ، أى (٣ + ٩ = ١٢) والطائرة الثانية التى اصطدمت بالبرجين كانت رحلة رقم ١٧٥ أى (٥ + ٧ + ١ = ١٣) ، والطائرة الثالثة التى اتجهت نحو البنتاجون رقمها ٧٧ أى (٧ + ٧ = ١٤) أى أن أركان العملية التآمرية كانت متجسدة فى رقم ١١ ، وأن الطائرات المنفذة اتخذت الأرقام التالية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

ويتساءل المرء بعد قراءة هذه التكوينات الرقمية عن مدى صنع الإنسان وتوليقاته ؛ من أجل أن يتفهم نوع الأسرار فى المصادفة والمشابهة والتنميط فى صور بعض الأحداث المفاجئة . ويبدو أن البشر فى كل مكان يتحركون فى تفكيرهم على متصل ممتد من العقلانية الصارمة فى أحد طرفيها إلى لاعقلانية (خرافية أسطورية) على الطرف الآخر ، فى ضوء ما يقرءوه فى الأحداث من تصورات ومصادفات وأنماط من صنع إدراكهم أو خيالهم . وقد يترتب على تلك القراءة وما بها من أنماط أن يتم تغييب العقل ، أو اعتقاله ، أو كبهه ، أو إجهاضه ، أو تزييفه ، أو اغتصابه . ولسوف يتساءل المرء كذلك هل ستظل هذه الظواهر والأفعال جزءاً لا يتجزأ من توظيف الفكر البشرى، مهما ارتفع مستوى الوعى والتفكير العلمى والنظرة الموضوعية والتقدم المادى والتكنولوجيا ، أم أن الرقى الحقيقى للحضارة الإنسانية لا يتم إلا من خلال القضاء

على مصادر الخوف والقهر والإفقار المادى والثقافى ، وتوفير الظروف لتحرير طاقات الإنسان ليمارس الحرية والمسئولية فى صناعة حاضره ومستقبله .

ومع ذلك النمط من التفسير فى صوره الأسطورية أو الغيبية أو السحرية ، فإن ذلك لم يحل دون ما أدى إليه حادث ١١ سبتمبر من تغيير فى صورة العالم وفى تصورات مستقبله ، وفى السياسات الأمريكية فى تداعياتها السريعة ، وفى موقف بقية العالم منها . وهناك تفسيرات سياسية فجحة وبعضها عميق فى التعرف على الدوافع الكامنة لهذا الاعتداء الإرهابى المريع ، الذى لم يخطر على بال أحد . ومنها ما بدأ فى اصطناع سياسة محاربة الإرهاب بكل الطرق ، حيث إن " أعداءنا يكرهون حرياتنا " على حد تعبير الرئيس بوش . وما يزال الجدل محتدماً فى الأوساط الأمريكية حول آفاق الحرب ضد الإرهاب ومداها ، وبخاصة حول مهاجمة العراق لتهديده المصالح الأمريكية كما يزعم فريق من صناع السياسة الأمريكية فى حرب وقائية استباقاً لإمكانية امتلاك بعض الدول الصعلوكة Rogue ، أو الجماعات المتمردة تكنولوجيات الدمار الشامل .

ويرى نعوم نشومسكى الناقد والأستاذ بمعهد (MIT) أنه قد اتضح تماماً بعد أحداث ١١ سبتمبر ما كان منتظراً قبلها من أنه (مع وجود التكنولوجيات الحديثة سيفقد الأثرياء والأقوياء احتكارهم شبه التام لوسائل العنف ، ويمكن أن يتوقعوا معاناة من فظائع على التراب الوطنى) .

إن تداعيات ونتائج أحداث سبتمبر عديدة ومتناثرة هنا وهناك ، ولن تحل جذور الدوافع التى أدت إليها الحرب ضد الإرهاب ، ومع ما أثارته تلك الأحداث من تنديد قاس فى كل أنحاء العالم ، فإن وسائل مواجهة أسبابها لم تحظ حتى الآن بالحصول على الشرعية الدولية لتوجهات السياسة الأمريكية ، وقد تجلّى ذلك فى عدم موافقة الدول الأوروبية لتلك السياسة وبخاصة على تفرد الولايات المتحدة بالقرار فى الهيمنة على مصائر العالم واستخدامها للقوة العسكرية، بصرف النظر عن القانون الدولى أو الإرادة العالمية ممثلة فى الأمم المتحدة .

## (٥) تدهور المؤسسات التعليمية والثقافية خلال غزو العراق

في الفترة من ٢٢-٣٠ يونيو ٢٠٠٣ تغامر جماعة من المؤرخين المعنيين بدراسة الشرق الأوسط (وتشير لهم باسم الفريق العلمي) بالارتحال إلى بغداد لتكشف مصير المؤسسات التعليمية والثقافية بعد الغزو الأمريكي، ولتعرف العلاقة بين سلطات الاحتلال والجماعة الأكاديمية والثقافية العراقية. وتألّفت تلك الجماعة من باحثة أمريكية من أصل أردني تقيم حالياً في عمان ، وأستاذ كندي في جامعة تورنتو، ومن أستاذ فرنسي من جامعة بروفنس ، ومن أستاذ أمريكي بكلية موين في سيراكيوز والمدير المشارك لمركز السلام والدراسات العالمية، وهو فرع من مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفارد .

وقد أصدر هذا الفريق العلمي تقريره في ١٥ يوليو ٢٠٠٣ بعنوان (فتح الأبواب : الحياة الثقافية والأوضاع الأكاديمية في بغداد ما بعد الحرب) ، وهو تقرير ضخم حافل بالتفاصيل . وقد حرصت هنا على تلخيصه قدر المستطاع ، اقتناعاً مني بأن له قيمته المعلوماتية للمعنيين بالتعليم والثقافة في مختلف أقطارنا العربية ، وأهمية دورهم في مد يد العون ؛ مما يمكن العراق من التحرر والنهوض الثقافي الوطني ، ووافياً من الهجمة الثقافية الأمريكية .

وقد أكد الفريق العلمي منذ بداية التقرير ما تبين له من أن أي معالجة أو نقاش حول النشاط الثقافي أو الحرية الأكاديمية أو بنية التعليم ومناهجه، لابد لفهمها من أن تركز في تعبيره من (حقيقة أن البلاد خاضعة لمصالح الاحتلال العسكري ويقوم على أرضها (١٦٨) ألف من القوات الأجنبية، وتفتقد الأمن والخدمات بصورة عامة في ربوعها ، وأن جواً مضطرباً قد يخلق سياقاً سياسياً مؤثراً في التراب الثقافي والجامعات والمكتبات ومراكز البحث في العراق) وهو في جميع الأحوال الراهنة مرتبطة في المقام

الأول، كما يصرح التقرير بالمصالح الأيدلوجية للسياسة الخارجية والتوجيهات الداخلية الأمريكية والتي يعتبرها العالم الخارجي، كما يراها العراقيون، استعماراً أجنبياً) .

قرأت هذا التقرير وأذهلتني الأجواء التي أثارها، حين يصف من خلال مقابلاته وزياراته للمؤسسات والعاملين فيها من الأساتذة ، ما جرى لها ولهم وبخاصة منذ منتصف الثمانينيات، ثم ما نجم عن الغزو الأمريكي ذاته من كوارث أحاطت بها وبهم. وأجدني هنا مضطراً لأن أترك التقرير مؤقتاً لأعبر عن خواطري المثارة حين تذكرت بغداد الرشيد والمأمون، ثم حين سيطر عليها أترك سامراء في أخريات المجد العباسي. لقد سادها الضمور الهزال عمرناً ، وتواترت الفتن والقتل والفساد ، وأجهضت كل محاولات الفكر بعد أن تم قفل باب الاجتهاد الفقهي ، وانطفأت مشاعل الآداب والفنون ، وترجمت التلاقح الثقافي مع تراث الحضارات الأخرى ، وأقفلت دار الحكمة أبوابها على الخرافة والتصوف المتواكل ، إلا قليلاً من الشعاع الحضاري الخافت هنا وهناك .

وفي هذه الأوضاع اليائسة من أوضاع الخلافة العباسية سرعان ما يصل الزحف التتري إلى بغداد فيجتاحتها عام ١٢٥٨م ، ويسفك الدماء ويدمر ويحرق ويعبث بكل مقومات التراث الحضاري من مكاتب وفنون وعلم وعلماء. وهكذا تصورت حال بغداد قبيل الغزو الأمريكي ، وما جرى لها أثناءه وبعده من قوات احتلالية وتوابع وجودها .

ففي عراق ما قبل الغزو، كان صدام حسين قد انفراد بالسلطة منذ منتصف السبعينيات ، حين بدأ عهده في إعلان طاغوته بإعدام مجموعة من رفاقه في محاكمة ارتجالية لم تتجاوز ساعة من الزمن. كذلك اصطفي عشيرته من أهل تكريت ليكونوا نواة حزب البعث الجديد إلى جانب من هرعوا ليدنوا له بالولاء التام والطاعة العمياء، وزج في السجون ودفن في المقابر كل من اشتم منه رائحة معارضة، ثم حشد الشباب والطلاب الجامعيين في قواته المسلحة لمحاربة الجارة إيران ، تحت شعار حراسة البوابة الشرقية للوطن العربي من خطر النظام الإيراني الذي وصفه بالجنوسي ، وكان ذلك بتشجيع ودعم من الولايات المتحدة وتمويل من دول الخليج ، ثم انقلب بعد ذلك إلى غزو الكويت وانتهت تلك المغامرة كما انتهت مغامرة إيران إلى الهزيمة النكراء والهدر لموارده والموارد العربية الأخرى . وتفاقت بعدها إجراءاته القمعية قتلاً وسحلاً ،

وترويعاً لكل مواطن عراقي على يد كتائب حزب البعث، مما أسفرت عنه المقابر الجماعية التي كشفت أخيراً عن ضحاياها .

وفي هذا الجو الرهيب حاول أن يُجَمَّل صورته بدعم بعض المؤسسات الثقافية والعلمية تمجيداً لثراث البعث وقائد الضرورة . وفي محاولة للالتفاف حول إبعاد الشيعة عن مقاليد الحكم وقيادات الدولة ، أُصِّل نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وأودع شجرة نسبه في مساجد النجف وكربلاء، وأغدق بسخاء على مهرجانات المربد السنوية التي دعا إليها الشعراء من مختلف الأقطار العربية ؛ ليشتدوا بأبجاده وعظمتهم وبقدرات درعه من قوات جيش المغاوير الأشاوس ... ولم تخل المنتديات الفكرية من الحديث عن مقولاته وخطبه ، كما لم يتوان المسرح والصحف اليومية الثلاث والإذاعة والتلفزيون عن ترديد آيات الولاء والتعظيم والإحلال لكل كلمة أو حركة للقائد المظفر وحزبه .

ويظهر على مسرح الأحداث السياسية عدى وقصى يهيأن للخلافة، ويسيطران سيطرة تامة على قطاعي الشباب والرياضة والإعلام لتطبق الدعاية الشاملة والتعبئة الخائفة على عقول الناس ومشاعرهم بصورة لا تفسح مجالاً، إلا ويتردد فيه تأليه القائد أملهم والزعيم الأوحد .

هذا الفيض من المؤسسات الإعلامية والثقافية يسبح بحمده صباح مساء، وينشر ويمجد صفاته الفذة المتمثلة في (٩٩) سمة شائخة كذلك جرى تطهير الجامعات من كل أستاذ لا يشيد بالبعث والرئيس في محاضراته ، وقد اتسع مجال هذا التطهير بما جاوز ما تعرضت مثله الجامعات العراقية عام ١٩٦٨ إبان المد الشيوعي في حكم عبد الكريم قاسم. ويحتل الأساتذة البعثيون مواقع القيادة في رئاسة الجامعات وعمادة الكليات ورؤساء الأقسام، ويتم شغل تلك المناصب القيادية بالتعيين بعد أن كانت بالانتخاب حتى عام ١٩٧٩ . ويلوذ بالصمت من استطاع منهم يهاجر المثات ومن وجدوا إلى ذلك سبيلاً. وتستمتع القلة من الأساتذة من أعضاء الحزب بالسفر للمشاركة في المؤتمرات، وحتى هذه المكافأة قد توقفت إلى حد كبير بعد حرب الخليج الثانية منذ التسعينيات ، نتيجة لما أحاق بالعراق من حصار اقتصادي ، كما توقف تزويد المكتبات بأية مراجع أو مجلات علمية حديثة أجنبية أو عربية .

ولعل قصة (لؤى حسين) ابن أخ الرئيس ، الذى رسب فى إحدى المواد الدراسية فى كلية الهندسة بجامعة بغداد دليل دامغ على ما ساد الحياة الجامعية من إرهاب ورعب، إذ تولت عصابة من فتوات البعث القيام بضرب ذلك الأستاذ ضرباً مبرحاً أصابه بعاهة فى ساقه ، بل وحاولت اختطاف رئيس القسم الذى أنبأ بالخبر ، وانتهى به العقاب إلى عدم تجديد رئاسته لذلك القسم !!

ومما يستحق الإشارة فى مجال القضاء على كل نسمة من نسمات الحرية الأكاديمية فى الجامعات العراقية ، تلك الإجراءات الرقابية على موضوعات البحوث فى رسائل الماجستير والدكتوراه، حيث كان من الضروري أن يتم الموافقة على اعتمادها من قبل أحد المكاتب فى رئاسة الحزب . ولم تخل المناهج الدراسية فى التعليم ما قبل الجامعى من التعبئة الطاغية لأجناد العراق خلال مختلف العصور ، ولانطلاقتها نحو العزة والكرامة الوطنية التى يجسدها القائد البطل . وقد كان على طلاب المدارس أن يبدؤوا دروسهم صباح كل يوم بنشيد يحبونه ويباركون جلائل أعماله . ولعل أعجب ما حدث من تذكير للطلاب بالانتماء والولاء للزعيم ما تم من استخدام حرفى (ص، ح) أول حرفين فى اسم صدام حسين ، بدلاً من الحرفين (س، ص) المصطلح عليها عادة فى كتب الرياضيات .

ومن المؤسسات التربوية التى أراد القائد فى منتصف التسعينيات أن يخلد بها ذكراه اقتطاع جزء من مباني جامعة بغداد ليكمل به إنشاء (جامعة صدام) ، وليزودها بالأساتذة المتميزين من الجامعة الأم، وليجعل من جامعته منارة تعليمية لتخريج الصفوة من قيادات الدولة وأيديولوجيتها البعثية . ويتم القبول فيها من الحاصلين على أعلى الدرجات فى امتحان الثانوية العامة ، مع إجراء مقابلات للمتقدمين للالتحاق بها. وقد جرى الاهتمام بتطوير مناهجها فى كليات الحقوق والعلوم والهندسة والطب ، والاحتفاظ بكثافة قليلة للفصول بحيث يكون فيها أدنى معدل من الطلاب لكل عضو من أعضاء هيئة التدريس ، والحاصل أنه لم يزد عدد طلابها منذ إنشائها عن (٢٥٠٠) طالب وطالبة، هذا فى الوقت الذى تنامت أعداد الطلاب فى الجامعات الأخرى دون حدود .

ولكى يترك مآثره على التعليم الدينى، أنشأ فى منتصف الثمانينيات (جامعة صدام الإسلامية) بمساعدة الكويت فى أخريات أيام حربه البائسة مع إيران لتدريس الفقه

السني، ثم اتبعها في أوائل التسعينيات (بجامعة الفقيه) لتدريس الفقه الشيعي. ولعله أراد بذلك إرضاء الشيعة دون أن يدرى بأن ذلك قد يؤدى في نهاية المطاف إلى مخاطر خلخلة التماسك الثقافى ، بوجود أربعة أنواع من التعلم والثقافة : نظام مدنى عام ، ومدنى متميز ، وسنى ، وشيعى .

تلك هى صورة عراق صدام وأيديولوجية البعث قبيل الغزو الأمريكى/البريطانى التتري، وفيها من أجواء البؤس الاقتصادى الذى فرضه الحصار الدولى ، ومن كوابيس الكبت والقهر الثقافى الفكرى مما نجد له مشابه كثيرة ، وإن تنوعت أشكالها وصورها مع أحوال بغداد فى عهد الخليفة العباسى المعتصم وجنوده الأتراك وغيرهم من المرتزقة، قبل أن يزحف هولوكو ليحدث الدمار والفوضى ولتتمزق الحضارة الإسلامية ، وتذوب معالمها وقواها فى الخلافات المذهبية وصراعات السلطة والحكم .

ونعود مرة أخرى إلى تقرير الفريق العلمى الذى وفد إلى بغداد ليستقصى أحوال مؤسساتها التعليمية والثقافية ، بعد الغزو التتري الجديد للحضارة الرأسمالية الحديثة . وسوف نلخص فى مقالنا التالى ما أحدثته قوى الاحتلال العسكرى، وما تزال تحدثه وتشيعه من تدمير وحرق وقتل وإرهاب وتصفيات كما فعل هولوكو -لما خلفه قائد الضرورة من مؤسسات متهاكمة . تغدو سياستها فى ذلك مرهونة بما تعلنه وتضمهر مصالح الولايات المتحدة الخارجية والداخلية ، متذرعة باسم محاربة الإرهاب ، ثم لتؤكد من خلال ذلك قدرتها كقطب القوة الأوحده فى عالم اليوم ، وبصرف النظر عن مصداقية مزاعمها فى تبرير هذا الغزو، مما كشفت عنه الوقائع والوثائق من زيف وضلال وتضليل ، ومما أصبح مضغة ومجالاً للتندر فى أفواه الشعوب ، بل ولدى قطاعات عريضة من الشعب الأمريكى ذاته ، وقد بدأت تتوالى لديها علامات التساؤل عن الأسباب الحقيقية الدافعة لهذه الحرب . وإذا كانت حروب صدام وطغيانه وجبروته مستمدة من جنون العظمة الذى ركبه ، فإن أحد الكتاب الأمريكيين يرى أن ج. دبليو بوش قد غامر بهذه الحرب زاعماً أنها نزهة عسكرية، لا بدافع الهيمنة وضمأن المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط فحسب ، بل ينضاف إلى ذلك اعتقاده بأن ضرورة الحرب جاءت استجابة لرسالة الرب فى محاربة الإرهاب وتأديب مواطن الشر ، هذا فضلاً عن أنه يريد أن يضع بصماته خالدة فى سجل التاريخ العالمى .

## الغزو الأمريكي وأحوال المؤسسات :

برصد لأحوال المؤسسات التعليمية والثقافية نتيجة للغزو الأمريكي / البريطاني للعراق. ويؤكد تقرير هذا الفريق بأن الحرب هي الحرب، تدمير وخراب كما هو متوقع، وبخاصة بعد تلك الغارات الجوية المكثفة والمتلاحقة التي أهالت فيها أحدث الطائرات الحربية الأمريكية بوابل من صواريخها وقنابلها العنقودية ، وقامت فيها دباباتها باجتياح كاسح للمباني والعمران، لم تميز فيه جميع الأسلحة الغازية بين الأهداف العسكرية والمنشآت المدنية ومؤسسات الخدمات والمرافق، وبخاصة على مدينة بغداد وضواحيها.

وقد شهد ذلك الفريق الذي اقتصر في استطلاعهم على المؤسسات القائمة في مدينة بغداد كثيراً من صعوبات العمل، وراعه ما حدث في المدينة من تدمير وحفر عميقة بفعل ما انتشر فيها من آلاف القنابل الثقيلة التي تفجرت ، والتي لم تنفجر بعد. هذا فضلاً عن الظلام المخيم نتيجة انقطاع الكهرباء ، مما جعل حركة الفريق محدودة تقتصر على الفترة من الثامنة صباحاً حتى الساعة مساءً حيث يلجأ الجميع إلى منازلهم بدواعي الأمن ومخاطره . وفي النهار والليل تتوقف أجهزة التبريد مما ضاعف من صعوبات العمل في درجة حرارة تتراوح ما بين ٤٥ - ٥٠ درجة مئوية .

وإذا كان الفريق لم يجد من قوات الاحتلال وموظفيه ما توقعه من تعاون بل أظهروا كثيراً من التحفظ ، إلا أنه استطاع أن يستعين ويلتقى بعدد من أساتذة الجامعات العراقية، وجماعات من المثقفين والفنانين، وبيعض رجال السلك الدبلوماسي الأجنبي ، وممثلي برنامج الأمم المتحدة واليونسكو. ودار الحديث خلال تلك اللقاءات عفويًا مسترسلًا باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية منتقلًا من موضوع إلى موضوع. في المكاتب وفي المنازل أو وسط الحرائق وأكوام الرماح . وقد أبدى معظم الأساتذة آراءهم في صراحة ودون تحفظ ، سواء في نقد الأوضاع خلال حكم النظام البعثي أو تحت ظروف الاحتلال .

أما عن الوضع الأمني العام.. فقد ظل في حالة من الاضطرابات والفوضى، وكان من أشنع صوره في أيامه الأولى ما جرى للمتحف الوطني من انتهاك وسرقات وإفساد وتشويه لمختلف مقتنياته ومرافقه ، وهو المتحف الذي احتضن آثار حضارتى بابل

وآشور وتراث حامورابي وآشور بانيبال ونبوخذ نصر، ولوحات القلم المسماري ، وغيرها من تماثيل حضارة بابل التي شهدت حداثق بابل المعلقة إحدى عجائب الدنيا السبع ، وتماثيل آشور الضخمة المهيبة فضلاً عن الآثار الإسلامية في مختلف عصورها . ومع غياب السلطة و شيوع الفوضى تألفت عصابات اللصوص ممن أطلق عليهم اسم (على بابا) ، والتي قامت بالسطو على المؤسسات الحكومية تنهب كل ما استطاعت حملة من الأجهزة الكهربائية والتليفونات والمحولات الكهربائية والحاسبات، وأثاث المكاتب. ولعل اسم (على بابا) ، الذي كان يسرق من اللصوص الأربعين في حكايات ألف ليلة وليلة، جاء مبرراً ومثالاً ومتماشياً في إطلاقه على اعتبار أن أولئك الذين كانوا يقومون بالسطو إنما كانوا يسرقون من (الحرامية) في المؤسسات الحكومية . لكن جرائم السرقة والسطو قد امتدت في بعض الحالات إلى المنازل والمؤسسات التجارية ، بل وتمادت في الاعتداء على الآمنين . ومن غرائب حالات السطو ما قام به البعض من فك الطوب الأثرى من جدران بعض المباني التاريخية العثمانية ، ومن مبنى وزارة الدفاع الذي يرجع معماره إلى العشرينيات أثناء فترة الانتداب البريطاني .

وفي حالة المؤسسات التعليمية والجامعات والمكتبات ومراكز البحوث ، يشير التقرير إلى أنها تعرضت بدرجات متفاوتة للإتلاف والتخريب وللحرائق و لسرقة ما حلا للصوص من الحاسبات والكراسى والطاولات والسبورات والشبابيك والأبواب ، وكل ماله قيمة من معدات الحياة التعليمية والثقافية اليومية في تلك المؤسسات ، حتى أصبح بعضها قاعاً صفصفاً كما يقال . ولم يقتصر الأمر على تلك السرقات ، بل امتد إلى الوثائق العثمانية والمخطوطات التاريخية والكتب ، وإلى سجلات الطلاب ومختلف الأوراق في الأرشيف الإدارى لتلك المؤسسات. وإلى جانب التشويه والإتلاف الشنيع لبنية المؤسسات وأجهزتها ومرافقها ومحتوياتها ، الذى نجم عن فراغ السلطة المركزية في بغداد ، ينضاف ما عانتته تلك المؤسسات من ضمور وهزال وفساد في الإدارة نتيجة للثقافة الأيديولوجية البعثية ، والذى بلغ ذروته منذ أوائل التسعينيات ؛ نتيجة الأزمات المالية وسياسة التقشف التى أملتها ضغوط الحصار الاقتصادى وهبوط أسعار النفط . كما يشير التقرير إلى تجميد أى نمو أو تطوير في المؤسسات التعليمية والثقافية، كما

توقفت مكتباتها عن التغذية في رصيدها والتجديد منذ أوائل التسعينيات. ويجيء الاحتلال وما صاحبه من فوضى ليدق آخر مسمار في نعش أى جهد ملحوظ للتطوير مقارنة بما عرفت به بغداد قبلاً بتميز جامعاتها ومراكزها البحثية ، حيث كانت تعتبر من أكثر المؤسسات نمواً وحيوية في العالم العربي . ويتابع التقرير تفاصيل أحوال الجامعات في بغداد واصفاً ما آلت إليه من دمار أثناء الحرب أو سطو وإتلاف من جماعات (على بابا) ، وسنكتفى هنا بإيراد أهم ما أصاب تلك الجامعات من شلل في حركتها حسبما ورد في التقرير .

**جامعة بغداد .. أقدم الجامعات حيث تأسست عام ١٩٥٧ ، تعرضت لبعض الدمار المادى أثناء الحرب، وكانت فريسة ومجالاً خصباً للسطو والسرقات، كما اشتعلت فيها حرائق ، ما يزال دخانها يغطي بعض جدران مرافقها سواداً ورائحة ...** بيد أن أكثر الخراب قد أصاب كلية الفنون الجميلة التي يقدر ما سرق منها بحوالى (١٠٠٠) أسطوانة موسيقية ، (٥٠٠٠) شريط تسجيلي، وعشرات من أجهزة التسجيل ، (٣٠) من آلات البيانو ، ومئات من كتب الفنون والموسيقى .

**وبالنسبة لجامعة المستنصرية التي تأسست عام ١٩٦٠ كجامعة خاصة ، ثم تحولت إلى جامعة حكومية في السبعينيات مع بداية الحكم الصدامي، فإن مكتبة الجامعة قد دمرت تماماً . ويبدو أن هذه الجامعة كانت أكثر تعبئة وتعبئة مضادة في جوها السياسى من جامعة بغداد، حتى أنه بمجرد أن سقطت بغداد في يد الغزاة انفجر العنف السياسى بين الطلاب من مختلف الألوان الأيديولوجية، مما بلغ ذروته المأسوية في مقتل أحد عمداء الكليات. وقد انعكست آيات التنفيس السياسى الذى كان مخنوقاً حين انطلق إلى ظهور كتابات على حوائط الجامعة ، يدعو بعضها إلى اعتبار (حزب البعث حزباً غير إسلامي) وبعضها يؤكد (الإسلام كمرجعية شريفة) ، وكتابات أخرى تتهم الكلية بأنها (بعثية) ، وفي مقابلها (نعم للحرية، نعم للازدهار، نعم للتقدم العلمي) ، ولعل أهم تلك الكتابات ما يدعو إلى (تكوين روابط طلابية جديدة) ، وإلى (الحث على مقاومة الاحتلال الأمريكي) .**

أما جامعة صدام التي غير أساتذتها تسميتها لتصبح **جامعة الرافدين** ، فهي الجامعة التي أنشأها صدام حسين عام ١٩٩٥ ؛ لتصبح الموطن العلمي في توليد النخبة من الكفاءات العالية المتميزة لخدمة مختلف القطاعات في عراق المستقبل، وعلى هدى من الاستراتيجية البعثية وقيادة الزعيم. لذا حظيت بمزيد من الاهتمام والتمويل مقارنة بالجامعات الأخرى كما أشرنا في مقالنا السابق . ولم يشر التقرير إلى أى من الإضرار التي حدثت لها من جراء الحرب ، أو عمليات السلب والنهب التي أحقت بالجامعات الأخرى.

ثم يستعرض التقرير أحوال المؤسسات العلمية والبحثية، بادئاً بمؤسسة **بيت الحكمة** ، التي أحيها النظام البعثي عام ١٩٩٥ تيمناً بمؤسسها وبشهرتها أيام الخليفة العباسي المأمون الذي أنشأها عام ٨٣٢م لتكون مركزاً للترجمة من اللغات اليونانية والفارسية . لكن صورتها الجديدة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالسلطة البعثية واحتياجاتها البحثية ؛ لذا كانت إدارتها تابعة لرئاسة الجمهورية فحظيت بكثير من الاهتمام والتمويل ، لكنها تحولت بالتبعية بعد الغزو إلى المشرف على الشؤون الثقافية وهو دبلوماسي إيطالي . وقد اشتهرت فيما قبل الاحتلال بكونها مؤسسة للنخبة من الباحثين، ويقال إنهم قاموا بإعداد كثير من رسائل الدكتوراه وغيرها من الأعمال البحثية التي نسبت زوراً إلى أفراد عائلة صدام كمؤلفين لها . ومع الفوضى التي نجمت عن الغزو تعرضت مكتبة بيت الحكمة ومتحفها لكثير من النهب والسلب للكتب والوثائق والمتحف الأثرية التي كانت في المتحف الملحق بها .

كذلك تعرضت **مكتبة المجمع العلمي العراقي** للنهب ، وإن كان بدرجة أقل من بيت الحكمة، لكنها فقدت عدداً كبيراً من ذخائرها الوثائقية وكتبها النفيسة ، وقد كانت كما هو شأن بيت الحكمة، تابعة لرئاسة الجمهورية ضماناً للسيطرة على أنشطتها ومؤتمراتها وحلقاتها الدراسية، ثم تحولت تبعيتها بعد الغزو إلى المشرف الأمريكي على الشؤون التعليمية ، الذي لم يقيم حتى جيء الفريق العلمي بزيارتها أو تعرف أحوالها وحاجاتها .

كذلك قامت اللجنة بزيارة **المكتبة الوطنية ودار الوثائق** في شارع الرشيد بمبناها الضخم وأجنحتها المتعددة ، ولم تسلم من الهجوم والسطو الذي جرى لها مرتين ، أولاهما

عند دخول الغزاة إلى قلب بغداد حيث تمت سرقة كل الأجهزة والمعدات كآلات النسخ والحاسبات وآلات التكبير ومحتويات المكاتب . وفي الهجوم الثاني اشتعلت النار في بعض الأجنحة حيث لا يرى الزائر فيها إلا أكوام الرماد المتبقية من احتراق الكتب . ويرى بعض المهندسين أن استقرار المبنى كله قد تعرض لخطر الاهتزاز من شدة حرارة الحرائق ، التي غطت سحب دخانها الجدران بالسواد، مما أتاح الفرصة للكتابات على الحوائط، ومن أمثلتها (الموت لصدام الكافر) بامضاء الحوزة . والحاصل أن الجماعة الشيعية قد عينت حراساً للمكتبة، يرتدون زياً خاصاً أسود نظراً لأن موظفيها الأصليين لم يكونوا عابثين بما يحدث ؛ لذا تطوعت الحوزة لأداء مهمة الحراسة كواجب ديني ووطني .

لقد كان الخراب والدمار الذي حدث للمكتبة الوطنية مريعاً ، لم يتوقع الفريق العلمي أن يكون بهذه الصورة، هذا إلى جانب ما قيل له من نقل مئات المخطوطات والوثائق والكتب إلى أماكن أخرى . كما زعم بعض العاملين في المكتبة بأنهم قد أخفوا كثيراً من رصيدها في أماكن سرية لم يفصحوا عنها. وفي ضوء ما شاهده الفريق من دمار بالمكتبة الوطنية، يرى أن بناء مقر جديد للمكتبة أصبح ضرورة لا مفر منها .

تلك أهم المؤسسات التعليمية والثقافية التي قام الفريق العلمي بزيارتها ورصد موجز أحوالها بعد ما جرى لها من تدمير وحرائق وسرقات أثناء الغزو وبعده حتى أواخر شهر يونيو من فترة بداية الاحتلال الأمريكي لأرض العراق .

### توجهات السياسة التعليمية والثقافية للاحتلال :

استعرضنا في مقالنا الثاني تلخيصاً لما أصاب المؤسسات التعليمية والثقافية في بغداد من جراء الغزو الأمريكي ، وما صحبه من فوضى نتيجة لعدم توفر أبسط مقومات الأمن والنظام ، التي تجاوزت قدرات جيش الاحتلال. واعتمدنا في ذلك على ما ورد في تقرير الفريق العلمي من المؤرخين من الولايات المتحدة وكندا وفرنسا ، والذي وفد إلى بغداد للإطلاع على أحوال تلك المؤسسات . وقد فصل هذا التقرير ما لحق بها من دمار في بنيتها الأساسية نتيجة لضرب بغداد وضواحيها بالصواريخ والقنابل، واجتياح الدبابات ، وما تبع سقوطها من انتشار عصابات النهب والسلب لمعظم ما استطاعت أن تصل إليه من آثار المتحف الوطني، ومن المكتبة الوطنية ، ومكتبات الجامعات وأجهزتها ومعداتها وأثاثها، فضلاً عن بيت الحكمة والجمع العلمي العراقي .

ويشير التقرير إلى الجمود الذي رآن على أنشطة تلك المؤسسات التعليمية والثقافية ؛ نتيجة لقصور الموارد منذ التسعينيات على أثر الحصار الاقتصادي ونقص عائدات النفط . وجاء الغزو وانعدام الأمن وانقطاع الكهرباء، وسرقة رأس مال الثقافي من كتب ووثائق وسجلات ليوقف معظم ما تبقى لها من أنشطة وبرامج . وأدى تخلخل الأمن إلى عدم انتظام العاملين فيها، وبخاصة من العنصر النسائي الذي اضطر إلى البقاء في بيوته، كما شهدت بعض الجامعات تصادمات عنيفة بين الطلاب ، رغم انتشار قوات الجيش في مداخل الجامعات وفي طرقها .

أضف إلى تلك العوامل التي حدثت بل وأوقفت في كثير من الحالات أى نشاط للمؤسسات التعليمية والثقافية، خضوعها لمشرفين أجانب ممن عينهم المدير التنفيذي الرئيسى لإدارة عملية تعمير العراق (بول بريجر) ، مما سلب صلاحيات القرار والعمل من العراقيين في مؤسساتهم . ويعلق التقرير على ما يعانيه العراقيون من إحباط ؛ نتيجة لفشل سلطات الاحتلال في إقرار النظام وتوفير الاستقرار والاحتياجات اليومية للحياة من غذاء وكهرباء وماء وهاتف وبنزين .

وقد أدى ذلك إلى ظهور بدايات تدمير وحركات مقاومة راديكالية للوجود الأمريكي ولجهوده في الأعمار والتطوير التي تتحرك ببطء السلحفاة . وبذلك فقدت إدارة الاحتلال ما لقيته من دعم وترحاب في الأيام الأولى مع سقوط النظام الصدامي. ويشير التقرير كذلك إلى ما يبدو من أن إدارة الاحتلال غير معنية بجدية العراقيين ؛ حيث لا يوجد نظام أو آليات مؤسسية تتيح لمختلف شرائحهم الاجتماعية والثقافية التواصل الفعال مع المسؤولين في تلك الإدارة . ثم أن اختيار إدارة الاحتلال للقصر الجمهورى مقر الرئاسة في عهد صدام حسين مركزاً لعملياتها ، يحمل من طياته على الأقل رسائل مضطربة ومختلطة للشعب العراقى . ويضاف إلى آيات التباعد بين الإدارة والأهالى ما يلحظه العراقى ويثير حفيظته من مسيرات القوات العسكرية تجمعها في الشوارع وفي حراسة الاجتماعات وفي نقاط التفتيش متشحة بدروعها وبنادقها ، مما يلقي بظلاله من مثول القوة العسكرية في مداخل المؤسسات وأمام الجمهور حيثما سار في ساحات بغداد .

ومن العوامل الهامة التي أدت إلى الجمود والاضطراب في نشاط المؤسسات التعليمية والثقافية ما اصطنعته إدارة الاحتلال من إجراءات لتطهير تلك المؤسسات من أعضاء حزب البعث أو المواليين للنظام القديم De- Baathification Policy وقد تمت محاولات هذا التطهير على مرحلتين، أولاً بناء على سلسلة من الأوامر الرسمية التي أصدرها رئيس إدارة الاحتلال (بول بريمر) ، وكان مما ينطبق على المؤسسات التعليمية والثقافية الأمر رقم (١) بتاريخ ١٧ يونيو ٢٠٠٣ ، والمنشور في الوقائع العراقية، حيث تقرر مادته الثانية ما نصه :

إن كل من يتمتعون بكامل عضوية حزب البعث ممن يشغلون مواقع القيادات الإقليمي ... وعضوية الفروع ... وعضوية الأقسام ... وعضوية الجماعة يتقرر بهذا الأمر إبعادهم من مواقعهم ، وحرمانهم في المستقبل من العمل في القطاع العام .

ويورد التقرير ما انطبق عليه هذا الأمر من المواقع التي شملت الغالبية العظمى من القيادات الجامعية والأساتذة البعثيين، بدءاً من رئيس جامعة بغداد ومدير بيت الحكمة، والذي يقدر أن حوالي ٧٥% من موظفيه قد تم عزلهم . وانطبق أمر العزل كذلك على جميع عمداء ورؤساء الأقسام في الكليات الجامعية ممن كان يتم تعيينهم على أساس حزبي في النظام القديم ، وبالنسبة لرؤساء الجامعات الجدد كان يتم اختيار المرشح الجديد من قبل المشرف الأمريكي على شئون التعليم ، وتجرى عملية انتخابية شكلية تتم في احتفالية فجة توحى بأنها عملية انتخابية حقيقية .

بيد أن الالتزام الكامل بأوامر تطهير القيادات العليا في المؤسسات بصورة عامة لم يكن متسقاً أو مطبقاً بصورة مطلقة ، حيث احتفظ (بريمر) لنفسه بحق الإعفاء من إجراءات التطهير على بعض القيادات . ومن هذا القبيل رئيس جامعة المستنصرية ومدير المتحف الوطني ، ممن رأى أهمية بقائهم في مناصبهم لما يمكن الاستفادة من شخصياتهم المرموقة في مساعدة الإدارة الأمريكية على إقرار النظام في مؤسساتهم . ثم إن عدداً كبيراً من المواقع الإدارية الوسطى والموظفين ، الذين استطاعوا بسلوهم الانتهازى الاستفادة من النظام القديم تمكن كذلك من الإفلات من تطبيق الأوامر الجديدة عليهم دون أن يلتفت إليهم أحد . أضف إلى ذلك حدوث الإقصاء لبعض الأساتذة والموظفين بناء على

أى اتهامات مبهمة ومغرضة وفى أى وقت من الأوقات ، سواء انطبق عليهم القانون أم لم ينطبق . وهكذا اتسمت سياسة التطهير فى كثير من الحالات بإجراءات غير عادلة فى التطبيق ، وسوف تظل موضعاً للكرهية وعدم الثقة فى النظام الجديد ؛ مما أدى إلى مظاهرات الطلاب واحتجاجاتهم إزاء حالات إبعاد بعض أساتذتهم المتميزين .

وإذا كانت الأوامر الرسمية والمواقف العشوائية للإدارة الأمريكية قد شقت طريق المرحلة الأولى للتطهير البعثى ، فإن المرحلة الثانية قد قام بتنفيذها البعض من العراقيين أنفسهم سواء بطريقة رسمية أو غير رسمية ، فى صورة عمليات الانتخاب الشكلى ، أو الاحتجاج أو استعمال القوة أحياناً لاستبعاد بعضهم بعضاً . وكانت تتم عمليات التهديد والاثام بالبعثية فى كتابات على جدران الكليات مدفوعة بالإحس والثارات الشخصية أو الرغبة فى الاقتراب والحظوة من النظام الجديد ؛ مما ينذر بتصاعد موجات من الثأر والثأر المضاد قد يصعب التحكم فيها .

وهكذا تعرضت المؤسسات التعليمية والثقافية فى تاريخ العراق لأربع موجات من تطهير قياداتها والعاملين بها خلال الأربعة عقود الماضية ، بدأت عام ١٩٥٨ بتطهير ثورة القوميين فى ذلك العام لأنصار الملكية ، ومن اقموا بالخيانة أثناء الحكم الملكى والانتداب البريطانى . وفى عام ١٩٦٨ تأتى موجة تطهير الشيوعيين للقوميين والبعثيين أثناء حكم عبد الكريم قاسم . ومن منتصف السبعينيات يبدأ تطهير كل المعارضين من مختلف الأحزاب والتوجهات على يد صدام حسين وقيادات حزب البعث الجديد . واليوم يجرى تطهير تلك المؤسسات من أعضاء حزب البعث وأنصاره على يد سلطات الاحتلال الأمريكى .

ويرى التقرير حسب تعبيره أن الطريقة الستالينية التى تتبعها الإدارة فى الإقصاء استناداً إلى معيار (البعثية) فيها اختزال شديد لمعايير اختيار القيادات فى النظام القديم ؛ إذ إن تلك المعايير كانت أكثر تعقيداً حيث ارتبطت فى كثير من الحالات بالعلاقات العشائرية والتكريتية بوجه خاص أكثر من مجرد عضويتها البعثية . ونظراً لكل مخاطر التطهير البعثى، يوصى التقرير بإيقاف عمليات الاستبعاد والتصفية حتى تستقر الأحوال نسبياً ، مع العمل على إنشاء (لجان الصدق والمصالحة) على نمط ما جرى فى جنوب إفريقيا ، وأن تتم معالجة موضوع الولاء والنظام على أساس القيم والمعايير الملائمة

لاستقرار الأوضاع العراقية، وفي إطار التحقيقات والإجراءات القانونية ؛ مما يجعل لها مصداقية العدالة والترحيب لدى العراقيين .

وبالنسبة لعلاقة مستقبل الجامعات بالدكتور (إدرمان) مستشار التعليم والذي كان عضواً في وزارة الخارجية بواشنطن قبل مجيئه إلى العراق، لكن يبدو أنه لم ينل قدراً من الإعداد والخبرة بشئون الشرق الأوسط من قبل ، كما أنه لا يعرف اللغة العربية. ويبدو كذلك - كما استشرع الفريق - أنه لا يحظى باحترام وتقدير الأكاديميين والمثقفين العراقيين. ورغم أن تسميه وظيفته بالمستشار لشئون التعليم العالي إلا أنه يمتلك صلاحية وزير التعليم العالي، مع أنه ليس لديه خبرة في تخطيط وإدارة الجامعات. وهو صلف لا يعتد كثيراً بأراء الأساتذة العراقيين ، ولكنه يعمل على تنفيذ خطة وضعت في واشنطن قبل الغزو. ومحورها كما أورد التقرير العمل على أن تصبح الجامعات هيئات ذات استقلالية بما يعنى خصخصتها، وأن ينضم إلى مجالسها أعضاء من الخارج ، وأن تلغى وزارة التعليم العالي مما يفصل الجامعات عن بنية المجتمع والدولة سياسياً. هذا فضلاً عن مراقبة ورصد مجالات البحث في الهندسة النووية والعلوم البيولوجية والكيميائية ، وهذا يعنى إنهاء عمليات نزع كل مصادر السلاح من العراق ، والحيلولة التامة في المستقبل دون بيع خبراته في إنتاج أسلحة الدمار الشامل في تلك المجالات للجماعات الإرهابية ، وللحكومات المعادية للولايات المتحدة .

وإذ يدين التقرير العقلية التي ارتأت مثل هذه الإجراءات في تصورهما المستقبلي للجامعات العراقية .. يدعو الجامعات الأمريكية إلى عدم التورط في قبول عقود ومشروعات من قبل هيئة المعونة الأمريكية أو غيرها للعمل على التحكم في مقدرات الجامعات العراقية دون مشاركة العراقيين في تقرير ونقد وتنفيذ تلك المشروعات .

ويأتى التقرير أخيراً إلى مؤسسة الصحافة ، وما جرى لها من تطوير بعد الغزو، مشيراً في هذا الصدد إلى أنها بدأت ما يقرب من (٧٥) صحيفة ومجلة طهرت على الساحة العراقية في بغداد عند زيارة الفريق، وهذا بعد أن كانت الدولة هي المسيطرة على إصدار ثلاث أو أربع صحف وعدد محدود جداً من المجلات . ويرى التقرير أن هذا العدد من الصحف سوف يتناقص، بل إن كثيراً منها قد اختفى فعلاً نظراً لعدم

استطاعة سوق القراء استيعابه. ويبدو أن هذه الانطلاقة الصحفية جاءت كرد فعل لما ساد فترة النظام السابق في التضييق والكبت على حرية التعبير ، والحوار واختلاف الرأي . وقد أطلقت الإدارة الأمريكية حرية إصدار الصحف، ولم تضع لها من الحدود والضوابط إلا ما قررتها الأوامر الرسمية، ومن أهمها : تحريم إثارة الفتنة، والحث على عودة النظام البعثي وأيديولوجيته ، والدعوى إلى الكراهيات العرقية والدينية .

كذلك يشير التقرير إلى التفاوت الكبير بين الصحف من حيث النوعية والتغطية الصحفية، كما يرتبط معظمها أما ببعض الجماعات الحزبية التقليدية كالشيوعيين أو الليبراليين أو الأحزاب الكردية ، ولعل أبرز الصحف الرائجة في بغداد هي (الزمان والتآخي الصباح). ولندن هي المركز الرئيسى لإصدار (الزمان) الصحيفة الوحيدة بالألوان حيث يعد نصفها هناك، بينما يعد النصف الآخر في بغداد، وبخاصة الصفحتين الأولى والأخيرة . وتعالج الزمان موضوعات ثقافية رفيعة تناسب اهتمامات النخبة، وتعنى بأخبار وصور الممثلين ونجوم الفن العربى والأجنبى . وهى صحيفة يدعى صاحبها بأن لها موقفاً محايداً فيما يتعلق بمجريات السياسة الحزبية في بغداد، ولكنها ، كما يرى التقرير ، تحتل موقعها في يمين الوسط أما صحيفة (التآخي) فهى صحيفة متزنة جادة تأسست عام ١٩٦٠ واستمرت مسيرتها خلال فترة النظام السابق حتى اليوم ، ولها ارتباطات بالحزب الديمقراطي الكردى، وتشاركه في موقعه على الإنترنت. وتعتبر صحيفة "الصباح" أكثر الصحف ارتباطاً بالإدارة الأمريكية وتوجهاتها ، وأقلها صلة بأى من الأحزاب السياسية. كما يرى التقرير أن غلبة الجيل الأكبر من محررى الصحف قد جعلها تفتقر إلى نضج سياسى متجدد في مناقشة أولويات حاجات التطوير في العراق وبخاصة في ضوء مستجدات التعمير والمتغيرات العالمية ، وتردحم مقالاتها بقضايا القومية العربية والصراعات الدائرة بين فئات المهاجرين في الخارج .

ويختتم التقرير رصده للأوضاع الثقافية بانتشار الكمبيوتر واستخدام الشبكة العالمية في المعلومات والتواصل ، وبخاصة بين الشباب، كما يتجلى ذلك في التنامى الأسى المتزايد لانتشار المقاهى الإلكترونية واتصالاتها بالأقمار الصناعية. ويؤكد ما لهذا الانتشار من تأثيرات بالغة في مستقبل المعرفة والثقافة في العراق، بعد أن كانت محرومة من كل تواصل مع العالم الخارجى .

## أما بعد . .

لقد جهدت في تلخيص هذا التقرير الذى رصد أحوال المؤسسات التعليمية الثقافية بصورة موضوعية ملحوظة ، كما قدم توصيات معقولة لم أتعرض لها ، مبيناً كيف يمكن للسياسة الأمريكية أن تأخذ بعين الاعتبار والتقدير آراء العراقيين أنفسهم إذا ما أرادت أن تعمر العراق وتبنى مؤسساته الديمقراطية ومجتمعة المدنى . ويحذر في توصياته من الاقتصار على المصالح الأمريكية في سياساتها التعليمية والثقافية، مبيناً كيف يمكن أن تؤدى إلى مزيد من القلاقل والفوضى والمقاومة لجهود الاستقرار اللازمة لإعادة أكسجين الحياة - حسب تعبيره - إلى أرض العراق .

لما كانت الأجواء السياسية والعسكرية هى التى تشغل في معظم الأحيان فكر القارئ العربى ، فقد رأيت أن معلومات هذا التقرير قد توفر قدراً ضرورياً من المعرفة بالأوضاع التعليمية والعلمية الثقافية باعتبارها عنصراً هاماً في تقرير العراق لمصيره ، واسترداد سيادته واستقلاله ، كذلك أأمل أن يكون هذا التقرير نموذجاً حافزاً لما يمكن أن تقوم به الجماعة العلمية والثقافية العربية في متابعة ما يجرى في أحوال تلك المؤسسات، ساعية إلى تعرف تلك الأحوال على أرض الواقع . كذلك يمكنها حث الهيئات الدولية كمنظمة اليونسكو للقيام بمهمات علمية لدراسة الأوضاع وتقديم التوصيات ؛ حتى لا تترك الساحة العلمية والثقافية في يد سلطات الاحتلال وحدها. ولعل هذه المقالات تحقق ما قصدت إليه من استثارة الفكر والسعى نحو فعل مجد ومؤثر في تطوير أهم مؤسسات المعرفة والرأى والفعل نحو عراق متحرر من الاحتلال مستقل ديموقراطى ، يتولى مواطنوه صنع الحياة على أرضه بالكرامة والحرية .

## إعمار مؤسسات التعليم والثقافة فى العراق

تملكنى شعور غامر بالثناء والاعتزاز بنبأ المبادرة الذى ورد فى صحيفة الأهرام بتاريخ ١٥ سبتمبر، ومضمون هذه المبادرة يتصل بما أصدره السيد الدكتور/ رئيس مجلس الوزراء بالعمل على تكوين بعثة مصرية يابانية ؛ لاستكشاف ما يمكن أن يقدم فى المجال الطبى من عون للمؤسسات والقوى البشرية المعنية ، للتخفيف من ويلات الحرب والحصار الاقتصادى الذى سبقها مما أدى إلى تردٍ مريع للأحوال الصحية لدى الشعب العراقى .

ولقد تم بالفعل وعلى التو تأليف ذلك الوفد من ممثلين للجانب المصرى برئاسة أ.د/ مديحة خطاب عميدة كلية الطب / جامعة القاهرة ، ورأس الجانب اليابانى السيد يوكيو أوكاموتو المستشار الخاص لرئيس وزراء اليابان. ووصلت البعثة إلى بغداد وقامت بمهمتها حول دراسة لأوضاع الحالية للمستشفيات ومراكز الإسعاف وتوافر الدواء .. إلى غير ذلك من عناصر المسح الطبي . كذلك تم تحديد خطة العمل ومستويات كل عن الجانبين المصرى واليابانى فيما يمكن القيام به من إسهامات لرفع المعاناة الصحية عن الشعب العراقى .

ومن حيث الأولوية فى تنفيذ المشروعات التى تم الاتفاق عليها استقر رأى على أن يتولى الجانب المصرى تدريب الأطباء العراقيين وفرق التمريض والفنيين بكل ما هو جديد ومتطور فى مجال الطب وفنونه وتكنولوجياه . ويقوم الجانب اليابانى بإعادة بناء مستشفى الأطفال فى بغداد وتجهيزه بكافة المعدات الحديثة وعلى أعلى المستويات الفنية.

ويدفعنى إنجاز هذه المبادرة التى تفضل بها رئيس مجلس الوزراء نحو التوجه إلى سيادته بالسعى مرة أخرى لإنجاز مبادرة مصرية إنسانية قومية ، تسهم فى إعمار المؤسسات التعليمية والثقافية التى أصابها الدمار والتخريب والنهب من أحداث الحرب والفوضى التى أعقبتها ، وبخاصة فى الجامعات والمكتبة الوطنية ودار الحكمة والمتحف الوطنى وغيرها . ولا شك فى أن النهج الذى اتبع فى تأليف البعثة الطبية وتحديد مهماتها سوف يكون هادياً وملائماً فى تكوين البعثة التعليمية الثقافية . وعلى سبيل الاقتراح يمكن أن تتألف من وفد مصرى ، وممثل للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وممثل للمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم ، وممثل لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة.

وإذا كان كل مصرى يثمن ويعتز كل الاعتزاز بالمبادرة الصحية ، فإن تقديره واعترازه سوف يتضاعف بدور مصر وقيادتها فى الإعمار البشرى والثقافى للعراق ، ولعله من الضرورى أن يتم التعاون فى أى مبادرة لإصلاح التعليم فى العراق مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والتعليم، والمنظمة الإسلامية للثقافة والتعليم، ومع اتحاد الجامعات العربية.